

الفصل التاسع

مرتفعات عسير

عبر الطريق إلى أبها وادي بيشة قليلاً إلى أسفل قرى السوق، ثم استمر بعدها ماراً بالقرى الصغيرة على الجانب الأيسر، ليتفرع إلى ذهبان على اليسار، بينما توجهنا نحن ناحية اليمين في اتجاه الجنوب الغربي، على طريق من سلاسل جرانيتية، لنعبر وادي عتود على مسافة نصف ميل أعلى قرية الخلصة. كان الأتراك، أثناء فترة احتلالهم لهذه البلاد التي نُسيت تماماً، قد قاموا بالفعل بتعبيد طريق من ذهبان إلى أبها، ونستفيد نحن الآن مما تبقى منه بعد عشرين عاماً من الإهمال، تلتها محاولات حديثة لصيانة أجزائه التالفة، لم يكن طريقاً سيئاً، على كل حال، لولا أنه صعب وبشكل واضح في بعض المواقع.

وجدنا أثرين من آثار العصور القديمة عند المضيق الذي يشق السلسلة الجرانيتية بالقرب من جانب عتود الأيسر. كان الأول منهما، جلموداً جرانيتياً ضخماً وكان وجهه المسطح المقابل للطريق مغطى برسومات لعدد من الحيوانات وبعض النقوش الثمودية أو الوسوم، وكانت متآكلة بسبب الطقس، كما كانت مخدوشة أكثر منها منحوتة على الصخر وكانت الثانية فنجاناً عميقاً، أو حوضاً أو مغرفة كبيرة، وقد يكون طبيعياً أو غير ذلك، في كتلة جرانيت على الجانب الآخر من الطريق وتسمى محلياً «مدير عنتر».

ورد ذكر الخلصة في الأدب العربي في العصور الوسطى بأنه مقر «ضم»، أو مكان للطواف، ويعد أهل خميس مشيط، أن الصخرة المنحوتة في هذا المضيق هي

النصب التذكاري الذي أشار إليه القدماء . يوجد من الأسباب ما يفيد أن الخلاصة الوارد ذكرها في الآداب القديمة، هي موقع آخر بالاسم نفسه في جبال الحجاز والذي -للأسف- لم أزره مطلقاً. لم تبدُ نقوش بيشة مثيرة، ويظهر وكأنها ليست إلا أسماء لرحالة سجلوها تذكراً لمرورهم بهذا المكان .

يتجه الطريق بصفة عامة، مع السماح لبعض التعرجات، ناحية الغرب فيما يلي وادي عتود، وفوق سلاسل من تلال سطحية في هذه البلاد، تقاطعها شعيبات عديدة صغيرة، كان علينا أن نعبها كانت منحدره أو صاعدة، في سلسلة جبلية متناهية في الطول وطرق متعرجة، ينتج عنها ارتفاع تدريجي للطريق . كان المنظر العام هو نفسه، عند كل القمم المتتابعة، كذلك المنظر الذي رأيته من برج عبدالوهاب، والذي ألقينا منه نظرة أخيرة، ناحية الخلف، على سلسلة جبلية تبعد حوالي ثلاثة أميال ونصف الميل، وقفت كتلتا جبل دخان إلى ناحية الجنوب الشرقي من عند هذه النقطة، معلّمة بلاد بني حموض شهران، بينما بدأنا نرى أمامنا، تجاه الغرب، الروابي الصغيرة لوادي حجلا المهم الذي يصرف معظم مسایل هذه البلاد في وادي أبها، الذي بدوره يتحد في نهاية الأمر، مع وادي بيشة عند أعلى مدينة الجنفور. يعد مجرى حجلا الحدود الإدارية المؤثرة بين منطقتي خميس مشيط وأبها، ولكن الأهالي المحليين يضعون الحدود على الطريق عند موقع كان الأتراك يقيمون معسكرهم فيه، أثناء قيامهم بإنشاء الطريق، ولا يزال هذا الموقع معلّماً بفرن للخبز ضخّم كان يعد فيه الخبز الذي كانوا يحتاجونه .

كان طريقنا، يتبع بطن شعيب حموض تقريباً، أحد روافد حجلا، الذي ينطلق من سلسلة جبلية كنا قد ألقينا النظرة الأخيرة عندها على خميس مشيط . كانت قيادة السيارات هنا فوق تربة متينة مغطاة بالحشائش كما كانت هنالك أعداد

كبيرة من أشجار الطلح الجيدة النمو في أسفل الشعيب . بقي القليل الآن لندخل حجلًا، الذي عبرنا حوضه الرملي الحصوي عند الساعة الواحدة ظهرًا، حوالي تسعة أميال فقط من نقطة البداية . يقوم حاجز كثيف ضخم من أشجار التين البري على امتداد الجانب الآخر للوادي، بينما في المجرى وحوله كانت هنالك أشجار طلح عديدة من حجم كبير .

بدا لنا أن هذا موقع مثالي لإغفاءة الظهر ولكن، ما أن أقمنا في مواقع مريحة وتحت ظل سور التين، حتى أخذتني الرعشة والحمى، كما حدث لي في الحنجور قبل ثلاثة أيام . على أي حال كانت الحمى أكثر خطورة هذه المرة، وظلت الحمى متمكنة مني، ماشياً أو نائماً، حتى الساعة العاشرة مساءً . شعرت بتحسن بعد ذلك، ونمت نوماً عميقاً حتى الساعة الرابعة صباحاً عندما أوقظت لصلاة الفجر .

تجولت بين الصخور، ما بين ذلك الوقت والساعة التاسعة صباحاً، باحثاً عن الطيور ومتفقدًا المباني الغريبة التي تكوّن القرية الصغيرة والمجتمع الفقير من بني مالك، قسم من حلف عسير العظيم . كانت مساكنهم، منتشرة على انفراد بين مساحات لمزارعهم البالية الهزيلة - وجذامية في هذا الوقت التي كانت غريبة كأى شيء لم أر مثله ومعلمًا تقدمياً إلى أسلوب جديد في فن العمارة . كان كل مسكن وكأنه برج مراقبة وليس بمنزل -طويلاً جداً بالقياس إلى قطره- اسطواني الشكل وبه -وعلى فترات على طول امتداده- شرائح صخر اردوازي بارزة ومنحدرة قليلاً إلى أسفل، لكي تقي الجدران من الأمطار العنيفة في هذه الأجزاء . أكسبت هذه الشرائح الأبراج مظهراً شرقياً فبدت كأنها الهيكل أو المعبد الصيني . تبدو معظم الأبراج التي تتخللها مساكن عادية ذات مظهر رديء ومدمرة، وتعكس بلا شك

فترة مبكرة لا سلام فيها في التاريخ المحلي . حينما كان منزل كل مزارع هو -بالفعل- قلعته للدفاع عن نفسه ضد هذا العدو الغازي .

وجدت فيما بين الصخور ثعلباً متسللاً، لم أنجح في الإمساك به، ونقشاً عربياً واحداً وقد تآكل جداً، ورسمًا بدائياً جداً لجمل . كانت الصخور أيضاً موبوءة بالفئران، التي فشلت في الإمساك بأي واحد منها، بينما كانت السحالي والجرايع متوافرة، مستمتعة بالشمس الدافئة . كانت الطيور في كثرة بين أشجار وجنات الوادي، متضمنة طيور اليمام الأخضر التي يسمونها خرود، وصياد ذباب صغير وأخيراً وليس آخراً، الزرزور اللامع الجميل والذي فيه يكون الديك وحده مكسواً بريش كأنه قوس قزح، بينما تكتسي الدجاجة منه ريشاً ذا لون رمادي منقط ومريح .

عبرنا بعد حوالي ميل واحد فيما يلي حجلا، فرعاً ثانياً للوادي، به قرية صغيرة تسمى غالض على الجانب الأيسر، وبعدها واجهتنا تلك البلاد المتموجة، الجرداء، الصخرية نفسها كما سبق . عبرنا -بعد فترة- شعيب لعسان وبه هضبة بالاسم نفسه على بعد نصف ميل داخل بطن الوادي، وهو رافد من روافد حجلا، وعلى الجانب البعيد منه تقابلنا مع مجموعة من رجال الأمير وهم يستقلون إحدى السيارات، وقد أوفدوا لتقصي أحوالنا وما قد يكون قد حدث لنا، حيث إنهم كانوا يتوقعون وصولنا عصر اليوم السابق . لم تعد -من هنا وما يلي- تخفى عن أعيننا علامات سكنى البشر . أولاً كانت البونعمان على تل منخفضة متعرجة على جانب الطريق، ثم فيما يلي شعيب شرف وشعيب جيهان كانت قرية الفلت، أيضاً بجوار الطريق، ثم القرية الكبرى غير المنتظمة درا وبها مبانٍ عديدة

شبيهة بالقلاع على هضباتها المبعثرة. كنا قد ارتفعنا عند هذه النقطة إلى ٧٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، كان الإحساس بهواء الجبال وهو يهب علينا عند الحاجز العظيم الذي يعترض طريقنا، منعشاً في صباح هذا اليوم الصيفي الرابع من يونيو. انحدر الطريق عند المرتفع التالي للأرض بشدة إلى تجويف منخفض حيث توجد قرية أكبر من القرى التي عبرناها وكالعادة، سألت دليلي عن اسمها. فبدأ عليه الحيرة فيما يخص أسماء القرى في هذه البلاد غير المألوفة له، وبدأ عليه التردد حيناً، ولكن إجابته أدهشتني. إذ قال إنها لا بد أن تكون أبها.

أبها! اسم عظيم في التاريخ العربي، ولكنها أكبر قليلاً من قرية بعد كل هذا كانت في حقيقة الأمر، عبارة عن مجموعة من القرى امتدت إلى بعضها البعض على جوانب ثلاثة من أرض مربعة مجوفة لتكوّن عاصمة المنطقة. كان الجانب الرابع من المربع محفوفاً بالركائز الضخمة للمنزل الحكومي، قلعة قديمة لهذه البلاد المضطربة والذي كان يجدد مراراً ويطور بواسطة الحكام المتتابعين. شمش برجه الأبيض، لامعاً في ضوء الشمس، متوعداً بالسلطة وقوتها لكل من له عين ليرى ويحترم القانون. غير أنه وخلال ثلاثة عقود، فقد شاهد أولئك الذين رأوه علم البرج الرسمي وهو يتغير ثلاث مرات. انتهت فترة الحكم التركي الصعبة في هذه البلاد الهمجية مع الحرب العظمى، ليحل محله الحكم الإدريسي والذي تم إخماده عام ١٩٢٠م بواسطة الحكم السعودي العظيم، والذي نجح وحده في صناعة السلام حيث كان العنف قد نشر جناحيه دون توقف ولقرون عديدة. ينظر العديد مع ذلك، بحنين وشوق للأيام الجميلة السابقة للأتراك، حين كانت يد كل رجل تمتد ضد جاره وكل الرجال كانوا متحدين ضد الحكومة. لم تكن أبها - على ارتفاع ٧٠٠٠ قدم فوق مستوى البحر عند سفوح جبالها الجبارة - أبداً مركزاً لتلك الفوضى البدائية.

يجري واديا جيهان ودرا، وقد عبرناهما، إلى أسفل ناحية الشمال ليصبا في وادي أبها أسفل البلدة التي تقع على الجانب الأيمن للأخير، وتمتد جزئياً ناحية الوادي. كانت قيادة السيارات سهلة بعد مرورنا بالقرية الأولى (خاشه) من قرى العاصمة لنجد أنفسنا أمام الباب الرئيس لمنزل الحكومة، حيث قابلنا الحاكم بالإناثة بنفسه شخصياً، خالد السديري، وقد كان ينوب في هذا الوقت عن أخيه الأكبر تركي الذي كان غائباً في رحلة طويلة إلى نجد والحجاز. ظلت عائلة السديري -التي يقع موطنها الأصلي في الغاط في منطقة سدير في شمال طويق، ولعدة أجيال متصلة عن طريق الزواج مع البيت الملكي لابن سعود- يتمتع أعضاؤه بمكانة تنقص قليلاً عن أمراء الأسرة المالكة. احتلت أجنحة خالد الحيوية قسماً من القلعة على جانبها الجنوبي ولم تكن مرفهة بأي حال. أُرشدنا إلى صعود درج مظلم متعرج إلى غرفة ليست بأقل ظلاماً ذات أبعاد صغيرة، ويستخدمها مكتباً لأداء المعاملات الرسمية. كانت جدرانها مزخرفة على نمط أبها، ذات خطوط هندسية بالقلم والحبر، وتصميمات زهرية، وكانت أرضية الغرفة مغطاة بالسجاد. في إحدى الزوايا توجد مكتبة عادية وعليها أوراق مبعثرة من فوقها وعلى أرفف متدلية من الجدار. يوجد جو من القذارة والفوضى في هذه الغرفة، لا تتناسب مع مكانة ووقار مضيفنا الشاب، الذي لم يتجاوز عمره الخامسة والعشرين.

لم تترك لنا مودته وكرمه، على أي حال، شيئاً كنا نتمناه، وبعد الحديث مع دورات أكواب الشاي والقهوة العادية، أعلن لنا عن الغداء، وتحركنا جميعاً إلى الطابق السفلي عبر الساحة المركزية إلى درج من مجموعة متواصلة من الدرجات قادتنا إلى غرفة الطعام -وهي غرفة متوسطة الحجم وبسيطة جداً. وضع أمامنا الطعام الثري في أصحن كبيرة تستقر على مقاعد معدنية كان المضيفان على رأس

الطاولة- بالطبع كان الطعام كله على الأرض- أكبر الأطباق وأطولها كانت مخصصة للأمير وضيوفه الخاصين. وجلس إلى جانب فرقتي كل تابعي الأمير والعديد من موظفي الحكومة إلى جانب زوار خاصين، كانوا في القلعة بصدد بعض الأعمال، جلسنا للطعام الذي اشتمل في الأساس على أرز مطبوخ ولحم ضأن إلى جانب المشهيات الأخرى (إدام) في صحن منفصلة أو أطباق، وبالطبع الخبز، والخبز المحلي من أجود دقيق القمح المعد في قوالب متطاولة يصل سمكها إلى نصف بوصة.

من سمات الكرم العربي أن الضيف المسافر المرهق يجب الترفيه عنه منذ لحظة وصوله إلى حين إطعامه -وتكون الفترة أحياناً طويلة. كانت الفترة هذه المرة قصيرة نسبياً وكنا غير مقيدين بعد تناول الغداء لنذهب إلى المنزل في حي مناخير الذي خصص لسكاننا أثناء إقامتنا في أبها. لم يكن قصراً غير أنه كان منزلاً مريحاً بما فيه الكفاية، يملكه أناس بسطاء عاديون ظلوا - رجل وزوجته- في الطابق الأرضي تاركين الطابقين العلويين لنا. قمت بحجز الشقة العليا، كاملة بحجمها ووسائل الراحة الأخرى- لي ولعفشي الضخم، بينما شغل رفاقي الطابق السفلي، يقضي سعد، حينما لا أحتاج له، كل الوقت مع شقيقته التي حينما كانت تعيش معه في سكني في الطائف في صيف عام ١٩٣٤م، قد خطبت الآن وتزوجت أحد الخدّام التابعين للمجلس الملكي وقد تم نقل الزوج أخيراً إلى أبها مع موكب الأمير تركي السديري وكان قد أحضر زوجته معه.

لقد دعيت إلى وجبة -حسب التقاليد- في إحدى المناسبات أثناء إقامتنا في أبها، واعترافاً بالكرم الذي كان في أسلوب تقليدي، فقد أرسلت إلى مضيفتي التي لم أرها جنيهاً إنجليزياً ذهبياً.

كان انعزالها، بالمناسبة، مفروضاً عليها بعاداتها النجدية وليس بالمستويات السائدة في أبها، حيث تتحرك النساء، كل النساء عدا الطبقات العليا، بحرية، تقريباً، وغير محجبات يرتدين السمى الجذاب مع حزام. كانت المرأة العاملة في منزلنا تحضر مراراً إلى شقتي لتنظيفها وترتيبها، وكانت في مثل هذه المناسبات، تتخلف لتجاذبني الحديث في أمور عالمها الصغير، وتسألني عن هدف علم الطيور وعن مطاردتي للحشرات وعن ملاحظاتي للنجوم وهكذا. كان إدماني لهذه الأشياء حديثاً شائعاً محلياً، وأكسبني العديد من الزوار، بعضهم يتمنى -بلا شك- أن أكون قد أحضرت معي الدواء الشافي لكل الأمراض، والتي كان سببها الرئيس هو فقرهم المدقع.

يعزى ذلك لحقيقة أن المغادرة النهائية للأتراك عام ١٩١٨م لحقتها ثلاث سنوات من حروب محلية، نتج عنها الدمار المتعمد لبساتين الفاكهة في أبها وما جاورها من قرى وأيضاً للمباني في العاصمة، بدأت أسمع القصة الكاملة للتاريخ الحديث لأبها مساء يوم وصولي، حينما صحبت الأمير في إحدى نزواته العادية إلى مشية إحدى القرى الصغيرة لدرا، حيث اجتمعنا على منصة في الهواء الطلق مواجهة لغروب الشمس، ذلك بعد أن فحصت الممشى الذي يربط الحديقة الصغيرة مع المنزل، الذي يسمى بيت المصري، ربما كان هذا أحد موظفي النظام التركي من الذين كانوا يرغبون في الحياة خارج البلدة. وجهنا السيارة، حين عودتنا إلى أبها، ناحية ساحة كبيرة مكشوفة، وراء القلعة، مزينة ببعض الأشجار ذات الحجم الجيد ومعدة لأن تشغلها الحامية العسكرية المحلية الوهابية الذين يعيشون معظم الوقت تحت الخيام. استدعى الأمير أحد الأعيان المحليين، واسمه أحمد بن هليل، ليقدمني له، وجلسنا إلى وقت متأخر من المساء نتحدث حول أبها ومغامراتها.

وجدت أحمد سريع الاستجابة للحديث. جدير بالاحترام، حقيقة، وواسع المعرفة، مع خبرة شخصية بالصعود والنزول لنمط الحياة في هذا الجزء من العالم. ولد في أبها، كما ولد فيها والده، غير أن أسرته ليست من مواطني المكان، لأن جده، من أصل عنزي فقد جاء من دمشق ليستقر هنا عند منتصف القرن الماضي في تلك الأيام التي كانت فيه هذه المرتفعات جزءاً من الدولة السعودية الثانية للعظيم فيصل بن سعود^(١).

كان الملك هو الذي منح أسرة عايض المحلية الرئاسة بالوراثة على قبائل مرتفعات عسير، وكانوا هم حكام البلاد حينما أبدى الأتراك اهتمامهم وللمرة الثانية بساحل البحر الأحمر للجزيرة العربية وأراضيها الداخلية، وذلك بعد وفاة فيصل وافتتاح قناة السويس بعد أربع سنوات لاحقة (١٨٦٩م). كان احتلالهم للمرتفعات قد تم عام ١٨٧٢م كجزء من المخطط الاستعماري الكبير للوزير الأعظم، مدحت باشا. ظل الأتراك منذ ذلك الوقت وحتى نهاية الحرب العظمى في احتلالهم مع حامية عسكرية، مكونة غالباً من ١٥ كتيبة، غير أنهم على الرغم من بنائهم لقلاع جيدة الموقع وأبراج المراقبة، في شكل حزام حلقي حول أبها، فإنهم لم يستمتعوا أبداً بسلام حقيقي أو أمان.

كانت القبائل دائماً متمردة وقامت بثورة كبيرة عام ١٩١١م حاصرت فيها قوات الحكومة في أبها لعدة شهور وجعلت من الضرورة إرسال حملة نجدة من الحجاز تحت القيادة الاسمية لشريف مكة -قدّر لنفسه أن يثور ضد القوة المتسلطة وليدخل التاريخ لفترة وجيزة تحت اسم الملك حسين ملك الحجاز-، الذي كان

(١) المقصود هو الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله. (المراجعون).

يرافقه في هذه المغامرة ابنه الشابان، عبدالله وفيصل، مستمتعين بتجربتهم الأولى للحرب.

كان الرئيس الإدريسي، محمد، من أبناء صبيا هو الذي وضع نفسه على رأس الثورة القبلية، وأنه هو الذي دخل إلى الجبال عند دروب غير معروفة متحاشياً درب الأتراك عن طريق شعار إلى السودة ومعه قواته وحشودها تندفع أسفل الطريق تجاه أبها، وانتصارهم على قوة تركية مهاجمة عند غاوة وإجبارهم الأتراك للحصول على الحماية من خلف تحصيناتهم. تمكن جيش الشريف من أترك وعرب -بعد مواجهته للعديد من المصاعب في الطريق- أن يشتت المتمردين وأن يخلص الحامية التركية، ولكن في هذه الأثناء، كانت قبائل قوز بالير في جبال تهامة قد ثارت من ورائهم، وأن حملة النجدة بعد فشلها عادت إلى مكة عن طريق خميس مشيط وبيشة.

ظل شيوخ آل عايض، كما يبدو، مخلصين للأتراك خلال هذا الحدث، ولربما قاموا بدور مهم في المعاهدة المشكوك فيها للقبائل التي تضمن نجدة أبها. كما ظلوا مخلصين للولاء نفسه أثناء الحرب العظمى، وتركتهن المغادرة النهائية للأتراك وهم ذوو سيطرة عليا، برغم أنهم الآن يواجهون تحدي الإدريسي، والذي اعترف له بسلطنة على عسير أثناء الحرب، بواسطة البريطانيين.

استمتع الإدريسي بالتعاون النشط لقبائل رفيده (قحطان) في الجبال إلى جنوب شرق أبها وقبائل رجال ألمع في جبال تهامة ناحية الجنوب الغربي. وحقت قواته القوية والجيدة العدة والعتاد نسبياً، تقدماً معقولاً أول الأمر في نقل سلاح مدفعيتهم تجاه أبها نفسها. وطلب شقيقا عائض، حسن ومحمد، بيأس، من ابن سعود أن يتعاون معهما لطرد الغزاة من بلادهم، وحضر عبدالعزيز بن مساعد،

من أبناء عمومة الملك، ومعه قوة سعودية عام ١٩١٩م. وقد تغير المد وهزمت قوات الإدريسي آخر الأمر وطرّدوا إلى الخلف، إلى السهول^(١).

فكر أشقاء عايض الآن في نقل الحرب إلى أرض العدو وتحذثوا عن احتلال صيبا، وأبي عريش وغيرهما من مراكز الإدريسي في سهل تهامة، وهنا لم يعتمدوا على ضيفهم. لقد جاء السعوديون، حقيقة لمساعدتهم، استجابة لرجائهم المساعدة، غير أنهم جاؤوا أيضاً ليقبوا. كان جيش أبها جاهزاً لحملة تهامة عام ١٩٢٠م، حينما تلقى حسن بن عايض الأخبار بتحرك جيش سعودي كبير بقيادة الأمير فيصل^(٢)، الذي كان عمره آنذاك ١٥ سنة فقط، قادماً مؤخراً من رحلته إلى أوروبا، والذي جاء معه المهيب خالد بن لؤي من أبناء الخرمة. وصل السعوديون إلى خميس مشيط، حيث قوبلوا بحرارة. أدار حسن جيشه وتحرك إلى الأمام بثقة لمقابلة الأصدقاء القدماء الذين أصبحوا الآن أعداء. دمرت قوات أبها في حجلا، وعبر البلاد وتقدموا فيها حتى تم لهم فتحها. انتشر السعوديون فوق كل البلاد ووصلوا حتى محاليل على الطريق الرئيس النازل إلى القنفذة. هكذا لقت القبائل المتمردة لعسير درساً قاسياً في سبيل السلام.

تم إخضاع حسن ومحمد، شقيقي عايض، ومعهما أحمد بن هليل نفسه، وقد ردوا جميعاً على كعوبهم، وروى لنا ابن هليل قصة نقلهم إلى الرياض

(١) الصحيح هو أن حملة الأمير عبد العزيز بن مساعد جاءت إلى المنطقة لتوحيدها ولرفض حسن بن عايض الوسائل السلمية، ونتج عن الحملة هزيمة ابن عايض في معركة فحلا ويمكن ابن مساعد من دخول أبها واستسلم ابن عايض وابن عمه وأعلننا مبايعتهما للدولة. (المراجعون).

(٢) الصحيح هو عام ١٩٢٢م عندما وصل الأمير فيصل بحملته إلى عسير لاختضاع ترمذ آل عايض وإعادة السلطة إلى المنطقة. (المراجعون).

ليكونوا «ضيوفاً» على الملك، وليتلقوا دروساً، بالمناسبة في التاريخ السابق لبلادهم كجزء لا ينفصل عن الدولة السعودية السابقة حتى دخول الأتراك لإفساد رؤسائها بالإعانات المالية والأوسمة. فمكثوا في الرياض مدة سبعة أشهر، بعدها سمح لهم بالعودة إلى أبها كمواطنين عاديين، بعد وعدهم الجاد بالسلوك الطيب في المستقبل، برفقة قافلة أول حاكم مدني نظامي من أبناء الشويش^(١) من الرياض، وأحد تابعي الملك.

لقد أمر الحاكم الجديد أن يلطف العنف بالرحمة وكانت احتكاكات شقيقي عائض وتجاربهما الجديدة بالرفق بعد الدروس القاسية في الماضي القريب، ذات أثر سيء عليهما، علماً بأن صديقي أحمد بن هليل، انسحب عن التمرد المتوقع، وذهب بعيداً إلى حين أن تنتهي العاصفة. لم تكن نهايتها بعيدة. تم القضاء على التحرك الأول فوراً وبقسوة أكبر.

وتم إبعاد كل أعضاء أسرة آل عائض الرئيسيين إلى الرياض أو إلى جهات أخرى، ومنذ ذلك الوقت لم يسمح لهم بالعودة مطلقاً. رأى أحمد نفسه أنه من الحكمة أن يبقى بعيداً إلى حين، وفكر في أن يجد وظيفة في الخدمة المدنية السعودية. شغل عدداً من الوظائف لعدد من السنوات في مصلحة المالية في القنفذة ومواقع أخرى في تهامة، وقام بإمداد الملح الصخري في عام ١٩٢٥م أثناء حصار جدة، للقوات المحاصرة، الملح الذي تم الحصول عليه من بعض الأودية المناسبة من الجبال إلى السهل الغربي، ويوجد الملح أيضاً في أبها. تم إنشاء وصاية

(١) الصحيح أن اسمه هو: شويش بن ضويحي المطيري. (المراجعون).

وسعودية عام ١٩٢٦م على إقليم الإدريسي، والتي ألحقت عام ١٩٣٠م بالنظام الإداري العام لحكومة ابن سعود، وقد تمت دعوة الإدريسي نفسه وأسرته إلى الإقامة في مكة، بعيداً عن كل الإغراءات غير المناسبة.

انتهت عملية إخضاع مرتفعات ومنخفضات عسير الآن، وأمكن لأحمد أن يعود إلى حياته الخاصة والعودة إلى أبها، حيث عاش منذ ذلك، مواطناً محترماً ومخلصاً، سعيداً بما فيه الكفاية، بلا مسؤوليات وظيفية تثقل كاهله. فبنى لنفسه منزلاً جديداً في حي القرعاء وأحاط المنزل بحديقة واسعة، وكان يتمتع نفسه بالترفيه والترحيب بالزوار بكرم شديد، ويتحدث عن تجارب حياة مملوءة بالأحداث. كانت حديقته تروى بواسطة نهر جارٍ طوال السنة من نبع مجاور قام بتوصيله بماسورة معدنية إلى بئر في الحديقة لتدعيم الإمدادات المائية. كان يبدو فخوراً بمقدرته على الزراعة وكان مولعاً بالأزهار التي كانت في هذا الوقت تغطي مساحات كبيرة وهي أزهار من الزينا، وجينداس، والزعتر المزهر، وبعض شجيرات الورد إلى جانب المتسلقات مثل اللوبيا القرمزية وأخيراً وليس آخراً، شجرة توت كبيرة نجت من محرقة الوهايين وأنتجت ثمارها بالتطعيم - كانت عقدة التطعيم واضحة في منتصف الساق - فأعطت ثماراً قرمزية بدلاً من الثمار البيضاء. كانت لديه أشجار فاكهة أخرى، ولكنها كانت لا تزال في مرحلة التجربة. كما عرض عليّ في اسطبل في إحدى زوايا الحديقة، فرساً أبيض جميلاً أحضره - كما قال - من بلاد تثلث، غير أنه يبدو لي من الطراز النجدي الأصيل. وكان قد اشتراه حديثاً، لابنه، سيف - إنسان عينه - وهو صبي في السادسة عشرة من عمره، وفي كل سماته شاب جذاب وذكي.

كانت العادة هنا، كما في خميس مشيط، أن يحتفى بالضيف فور وصوله بإشعال مجمرة النار وبها البخور لتعطير الحجرة. أول تجاربي لذلك، كانت في منزل أحمد، وقد أشرفت امرأة بوضع المجرمة مع كلمة تحية «أرحبو» (مرحباً بكم). يشرح أحمد لي ذلك، ربما استجابة لدهشتي التي لم أعبر عنها بالكلمات، بأن هذه هي العادة في هذه البلاد ذلك أن تقوم النساء بخدمة الضيوف وتحييتهم. إنهن بكل تأكيد، أكثر حرية من نساء نجد، حيث لا يمكن أن يحدث مثل هذا. كان بعض النسوة، وتقريباً كل النسوة اللائي يقمن برعي الأغنام على جوانب التلال، أو يعملن في الحقول، كن يرتدين قبعة عريضة من القش. وترتدي كل النسوة هذه القبعات في المحافظات أعلى الجبال، وكذلك معظم الرجال حينما يعملون تحت الشمس. أدركوا أن الشمس أكثر حرارة في هذه الأجزاء منها في الحجاز، إلى الشمال، غير أن درجة الحرارة في الظل في أبها كانت تبدو، بصفة عامة، منخفضة جداً. كانت الدرجة القصوى هذه الأيام ٧٥ درجة في المتوسط، وكانت السفلى حوالي أقل بعشر درجات بصفة عامة، غير أنها في إحدى الليالي تدنت إلى ٥٤ درجة.

لعل قلعة أبها ضاربة في القدم، وبرغم أنها قد قاست تقلبات مختلفة من حصار ومن تدمير جزئي عبر العصور، فإن الفحص المتأن قد يكشف عن إسهامات فترات عديدة مختلفة. يعود تاريخ الجزء الجنوبي مثلاً -للمبنى الذي يحتله الأمير خالد- إلى زمن بعيد، وذلك لأن مثل هذه الغرف المظلمة، لا يمكن أن تبنى في هذه الأيام المتطورة. لم يستثن السعوديون، حين هجومهم على أبها، القلعة، والبناء القائم اليوم والمثير للإعجاب، إلى جانب أنه احتوى على كل التراكيب القديمة التي قاومت، قد تم بناؤه خلال الخمسة عشر عاماً التي سبقت

زيارتي، بينما لا يزيد عمر البرج العظيم الأبيض عن ٣ أو ٤ سنوات. تقع الحديقة الحكومية خلف القلعة عند الزاوية الجنوبية الغربية، محتوية على بعض الأشجار الكبيرة ولا شيء آخر إلا القليل.

لقد ذكرت سابقاً، قرية خاشة الصغيرة التي تقع على الجانب الشرقي للقلعة. يتفرع الطريق، قبل الوصول إلى هذه القرية، تجاه اليسار وتجاه اليمين ومن حول المنازل والقلعة والحديقة ليتحد فرعاها مرة أخرى على الجانب الغربي للحديقة ثم يستمر تجاه الجنوب الغربي بين المعسكر الحربي وقرية قرا (إلى الغرب من الحديقة) ثم أعلى الوادي - وادي أبها.

على الجانب الآخر من الوادي وإلى الغرب من قرا تقع القرية الصغيرة الطفيفه مفتاحة ومزارع فاكهتها عند المنحنى الحاد للنهر. تقع قرية قابل على الجانب نفسه للوادي (الجانب الأيسر) حيث يلتف الوادي من الشمال إلى الشمال الشرقي، والتي تتصل مع الجانب الآخر عن طريق جسر بناه الأتراك ليحمل الطريق الرئيس من أبها إلى كل من السودة وشعار. يمر هذا الطريق على الجانب الغربي للقرية الكبيرة نعمان وعلى جانبها الآخر مبانٍ مبعثرة ليست بذات أهمية. يلف الطريق حول أرض الاستعراض عند جانبها الجنوبي بين قرا وحديقة الحكومة، والطرف الجنوبي لصف من المتاجر مكوناً جانباً واحداً من محل السوق، ليصل إلى القلعة، والتي في مقابلها -وعبر محل السوق- توجد أكبر قرى أبها واسمها مناظر وعلى جانبها الشرقي قرية صغيرة يفصلها عنها مساحة مكشوفة ضيقة. تكتمل مجموعة أبها -أخيراً- بقرية نصب الصغيرة الواقعة إلى الشمال من نعمان على الجانب الأيمن للوادي حيث ينحني الوادي مرة أخرى ليكون مجراه الشمالي الشرقي إلى الشمال.

كانت المباني من اللبن وذات طابقين في معظمها، غير أن بعضها كان من طوابق ثلاثة، وأساسها كلها حجري ومظهرها بسيط إلا من تلك الصفوف من ألواح الصخر الأردوازي التي تبرز من الجدران الطينية لتحمل مياه الأمطار بعيداً عن الجدار، أو ربما لتمنعها من أن تسيل فتصل إلى الأساس. كان أدنى هذه الشرائح موضوعاً عند منتصف ارتفاع البناء وبعد ذلك، تتابع على مسافات من ١٨ بوصة إلى القمة. يبرز شكل الهيكل الصيني للبناء بوضوح خاصة حينما يبرز تجمع من منازل، مكوناً قرية وتبرز هذه الشرائح إلى الخارج في اتجاه المشاهد، إلى جانب أن المنازل نفسها قد شيدت فوق هضبات والتي ترفع المباني الداخلية إلى مستوى أعلى من تلك التي على الحافة. لقد انطبع في ذهني دائماً، هناك في خميس مشيط وهنا في أبها، ومن كل الجهات، أنه ومنذ قيام الحكم السعودي، فإن الازدهار، مع السلام، كان يعود في بطن إلى كل هذه البلاد، غير أن انطباعي العام عن الناس في هذا الوقت، أنهم كانوا فقراء لدرجة البؤس، وتقف كل مزارعهم مهجورة، وفقط بقيت مزارع الذرة الشامي تمدهم بما يفي بالبقاء في نطاق متواضع. كان للمكان -رغم كل ذلك- كبرياء خاص به -شخصية حقيقية- وقد يتمادى المرء فيقول انفرادية مؤكدة. لم أر مطلقاً مكاناً آخر مثل أبها.

يعد وجود أحد الضيوف في أوساطهم، أحد الأعذار في المجتمعات العربية لإعداد سلسلة من الاحتفالات، تكون عادة على شرف الحاكم المحلي - مثل الملك. لم تكن أبها شاذة عن القاعدة، غير أنني في يوم وصولي إلى هنا، هاجمتني الحمى، التي يبدو أنها ذات دورات كل ٤٨ ساعة، وظللت طريح الفراش لم أر أحداً ولم أقم بعمل أي شيء.

خرج الأمير ومعه عبدالوهاب في اليوم التالي يصحبهما الفوج الكبير المعتاد من موظفين وأعيان وشيوخ القبائل، لقضاء اليوم مع سعيد بن مشيط في ذهبان. لقد قدمت لي الدعوة ولكنني اعتذرت لأمضي اليوم بهدوء لكي أتعافى من الحمى ومن متاعب السفر وأيضاً لحزم عينات التاريخ الطبيعي، استعداداً لإرسالها إذا توافرت أي سيارة متجهة إلى مكة أو جدة، لنقلها آخر المطاف إلى المتحف البريطاني. يمكن لليوم الجميل في هذه الأيام أن يمتلئ بالسحب سريعاً بعد منتصف النهار، وتظل السماء مملوءة بالسحب، بصفة عامة، حتى الغروب، حينها يصفو الجو ويكشف عن سماء صافية مرصعة بضوء النجوم.

استقبلتنا قطرات قليلة من المطر في اليوم الرابع وكان هنالك مطر غزير في اليوم السابق لقدومي. كان خط العرض هنا ١٨,٥ درجة شمال، ولعلنا كنا داخل الحدود الشمالية للرياح الموسمية، كان معي جهاز اللاسلكي الخاص بي، الذي استمع عن طريقه للأخبار وإشارات الوقت -عادة من الإذاعة البريطانية أو القدس- وذلك لأجل تحديد أوقات ملاحظاتي للنجوم، غير أنه يوجد في أبها (في القلعة) جهاز لاسلكي للإرسال والاستقبال لغرض أعمال التلغراف ومعظمها على حساب الحكومة. كان الجهاز من طراز ماركوني القديم، وهو أول جهاز اشترته الحكومة السعودية للاستعمال في القنفذة عام ١٩٢٦م، وقد أرسل حديثاً إلى أبها حيث صنعوا له برج أسلاك عالياً ليحمل هوائيه. ما يهم هنا، أنه لا يزال يعمل.

لقد تم منح أبها، -على عكس بيشة، دعك عن رنية والخرمة- أسطولاً صغيراً من سيارات رسمية نزولاً لمكانتها المحلية والمرتبة الاجتماعية لحاكمها.

كان أكثر الأمور أهمية ذلك الجهد الذي بذلته الحكومة لتأمين خدمات طبية متواضعة. يوجد في أبها «مستشفى» يرأسه طبيب هندي يدعى. دكتور

عبد الحميد. لم يكن المبنى حقيقة مستشفى بل أكثر منه صيدلية من أكثر الأنواع بدائية، عارضة صورة حزينة للحضارة في غرفة منفردة، صغيرة، في الطابق الأرضي مقسمة إلى أجزاء بواسطة الستائر، خالية من الأثاث إلا من علب القاز عبوة أربعة جوالين فارغة وضعت إلى جوار بعضها البعض لتكون طاولة من نوع ما، وعلب مماثلة رتبت الواحدة فوق الأخرى في صفوف لتكون أرففاً توضع فيها قارورات الدواء وما شابه ذلك. امتدت مسؤوليات عبد الحميد إلى نجران في الجنوب وإلى تهامة في الغرب. كان رجلاً لطيفاً، صغيراً، مسرفاً في التعبير عن عاطفته وزائد القلق لإرضائه. كان لا يزال في مرتبة أدنى في مهنته والتي كان فخوراً بها وكذلك في مكانته كرجل متعلم. يتحدث الإنجليزية بطلاقة ومعه هنا، في المنفى، زوجة هندية من ترنداد، من دون كل أماكن العالم، وابنة صغيرة وقد بدأت تتكلم الإنجليزية بتلعثم. يبدو أنه استطاع أن يتعامل بصورة جيدة مع العرب هنا، مسؤولين ومرضى، ولكنه يميل إلى أن يرى نفسه مميزاً عنهم، ولذا فهو يرتدي بنطالاً أبيض وقلنسوة مستديرة مسطحة سوداء.

كان اهتمامه الرئيس، إلى جانب عمله وأسرته، في الحياة هو آثار العصور القديمة، وحينما زرته بعد الظهر حينما كان الأمير غائباً في خميس مشيط، كان قد عاد لتوه من حملة آثارية إلى مشية. التي كنت قد زرتها مع الأمير عصر أول يوم وصلت فيه إلى أبها. كان هنالك لينسخ بعض الرسوم الصخرية، وقد قادني بعد أيام قليلة إلى ذلك الموقع. وقفت منازل قليلة عبر الوادي من عند مشية وهي منازل من النوع الأفقر وبها حدائق متواضعة في وسط قطعة أرض لزراعة الذرة الصفراء، والتي توجد بالقرب منها سلسلة من جلاميد جرانيتية عظيمة بعضها يحمل نقوشاً لرسوم بدائية تمثل حيوانات. كان من بين هذه الرسوم شكل أسد

يبدو وكأنه يطاءً وعلاً بقوة، ورسمًا لرجل وقد امتدت ذراعه، ورسمًا لمارية وعدد من الوعول. توجد أيضاً أحجار جرانيتية ضخمة تم تجويفها إما طبيعياً أو بواسطة الإنسان، لتكوّن حماماً واسعاً أو وعاءً كبيراً، وبجوارها توجد ثلاثة جلاميد، الواحد فوق الآخر، كأنها نصب تذكاري، غير أنه من المستحيل القطع إن كان هذا ضريح من أضرحه ما قبل التاريخ وضعه الإنسان أو كان فلتة طبيعية. كانت نزهتنا مريحة جداً وعدنا بعدها عند حلول الظلام تحت سماء مرصعة بالنجوم، عن طريق مباشر، يعبر الوادي (أبها) عند موقع كان جانباه على ارتفاع ٣٠ إلى ٤٠ قدماً، مع طين ندي سُمكه ١٥ قدماً كأنه كتلة مشكلة ملتصقة في غير تماسك شبيه بحلوى المهلبية. تكون صخور الوادي في مواقع أخرى، كما في قرية نصب صخوراً جرداء. أخبرني عبد الحميد عن مكان آخر بالقرب من أبها يسمى ذو القرنين، والذي لم أستطع زيارته، بأنه يحتوي على نقوش وعلى حوض حجري. وأخبرتُ لاحقاً أنه يقع بالقرب من قرية البو نعمان التي مررنا من عندها في طريقنا إلى خميس مشيط.

قمت بزيارة الأمير في الصباح بعد عودته من خميس مشيط، وكانت غرفته مزدحمة بالزوار الذين أبدوا اهتماماً كبيراً بشخصي وبنشاطاتي وكانوا ودودين. كان من ضمن أولئك الذي حضروا، في زيارتي الأولى، علي بن حسين بن هيف، شيخ رفيده، الذي كان في العاصمة لأداء بعض الأعمال وكان عليه أن يعود إلى حباله في اليوم نفسه. لقد حاول مرتين مقابلتي عصر ذلك اليوم، مع ذلك، كلاهما للأسف بلا نجاح، ذلك لأنني كنت بالخارج، عصر ذلك اليوم، ولدي اعتقاد أنه يرغب في دعوتي لزيارة بلاده. كنت آسفاً ألا أجد الفرصة للتحديث معه، ذلك لأن جبال رفيده ستبعدني بعيداً إلى خارج مساري. كان

هنالك من الناس من يطلبني من نجران، في تلك الأيام، حيث استطعت مقابلة العديد منهم في وقت لاحق. كان ذلك الشخص هو حمد بن حسين بن نصيب، الشقيق الأصغر لجابر، الشيخ الرئيس لمجموعة المواجد التابعة لمذكر يام. كان القسم الآخر لمذكر، كما قالي لي، هو آل فاطمة وشيخهم جابر أبو ساق. يتكون اتحاد يام من مذكر وشام (جشام)، ويرأس الأخير سلطان بن منيف. كان حمد هنا في طريقه إلى مكة وغادر بالفعل على ظهر شاحنة بعد أيام متجهاً إلى هناك، غير أن الشاحنة كانت تحمل فوق طاقتها ٢١ راكباً وكتلاً من العفش مما دعا حمد وخادميه لترك المحاولة في خميس مشيط والعودة إلى أبها. نظراً لمعرفته باهتمامي بالآثار القديمة. قيل لي إن أمين المستودع بمصلحة المالية له علم أيضاً بهذه الأشياء، غير أن هذا الرجل واسمه لحق، كان فيما يبدو، غائباً أثناء زيارتي.

نعود من هذا الاستطرد إلى موضوع الاحتفالات، دعيت ذات مرة إلى العشاء عند ابن ضاوي، أحد الموظفين الرئيسيين للقسم المالي المحلي، والذي دعا الأمير لتشريف حفلة الانتقال إلى قصره الجديد بمناسبة الانتهاء من بنائه ليسكنه هو، وكان المنزل على طرف قرية نعمان. اجتمعت فرقة كبيرة حول عشاء ممتاز وتحركنا كلنا بعد ذلك إلى منزل عثمان بن عثمان، ذلك الشخص نفسه الذي مر بنا في الحنجور في طريقه ليتسلم وظيفة رسمية في أبها، لتقضي هنالك ساعة أو بعضها نتحدث على أكواب القهوة والشاي.

أديت صلاة الجمعة في الجامع في قرية مناظر. لم يكن الجامع بالواسع الذي يستوعب كل السكان البالغين في أبها، وكان على من لم يستوعبهم المسجد أن يذهبوا إلى مساجد في القرى الأخرى، لقد كان عدد الحضور حوالي ٥٠٠،

يجلسون في ١٥ صفًا، كل صف من ٣٠ إلى ٣٥ شخصًا. حضر موكب الحاكم يسبقه عبيده في أزيائهم المبهرجة وكلهم مسلحون بالمسدسات، والأحزمة العريضة ذات الجيوب التي يوضع فيها الرصاص والسيوف، ويتبعهم بعض جنود الحامية - كان مشهداً مثيراً أثناء مروره من القلعة عبر مكان السوق، وعبر الشوارع الضيقة التي تقود إلى المسجد. احتل المحراب منتصف الجدار الخلفي، موجهًا تمامًا ناحية الشمال، بجواره كوة أخرى إلى يمينه، (متجهين نحوها) مع سلالم قليلة تقود إلى كرسي يستخدم منبراً لقراءة الخطب. يرفع المؤذن النداء للصلاة بأسلوب لطيف ومشجع، وذلك عندما يدخل الإمام عن طريق باب في الجدار الخلفي. كانت الدعوة المحلية للصلاة والتي تسمع من كل المساجد عند أوقاتها المحددة، تستحق الإشارة هنا للغناء الواضح أو التداخل (يعرف بـ إدغام للحروف في الصيغة العادية: مثلاً: لا الله، بدلاً من: لا إله إلا الله، ومحمد رسول لاه، بدلاً من: محمد رسول الله - يتبع أعيان القرية الأمير في أثر موكبه بعد نهاية الصلاة إلى القلعة للاستقبال العادي ليوم الجمعة.

لقد قيل، ولا أدري إن كان هذا حقيقة أم باطلاً، أن الأمير سعوداً حين كان يستخدم أبها قاعدة أمامية للعمليات ضد اليمن في عام ١٩٣٤م كان عائداً هكذا من المسجد إلى القلعة وكان بالفعل على درج مدخل القلعة حينما انطلقت رصاصة وسقط عبدٌ ضخم ميتاً تحت أقدامه، وكان هذا العبد يتبعه مباشرة.

كانت هناك بلا شك محاولة للاعتداء على حياة الأمير وكان أعوان اليمن في ذلك الوقت متواجدين بلا شك، بغرض شريك، ولكن حسب علمي فإن المجرم لم يعرف مطلقاً.

كان مضيفنا لحفل عشاء في مناسبة أخرى هو مدير مصلحة الدخل الحكومي، محمد البسام، صديق قديم لي، جاء إلى هنا من مكة قبل حوالي ستة أشهر وقد رأيته مراراً خلال الأيام الأخيرة. كان الأمير -بالطبع- حاضراً، وكذلك كل موظفي الحكومة في أبها، بما في ذلك عبدالوهاب، وطلعت أفندي -أيضاً من المصلحة نفسها- وابن ضاوي الذي ذهبنا إلى منزله لتناول القهوة والشاي بعد الوليمة.

كان السعي لإعادة تنظيم إدارتي المالية والدخل للمنطقة في ذلك الوقت هو الشغل الشاغل لكل موظفي الحكومة من الأمير إلى أدنى موقع وظيفي وقد تجمعت لديّ حقائق عديدة مثيرة للاهتمام أثناء محادثاتي مع هؤلاء الناس، ولربما كان من الأفضل أن أتحديث عنها بأقل قدر ممكن. كانت العملة الرسمية في هذه الأنحاء هي دولار ماريا تريزا -ريال أو ريال فرنسي- والذي كان يقسم من أبها وإلى الجنوب متضمنة خميس مشيط من ٦٠ إلى ٧٠ زلط -مفرد زلطة، قارن مع زولطى البولندي-، والتي كانت من فئات واحد زلطة ونصف زلطة، عملة نحاسية صغيرة أصلها اليمن حيث توجد فئات أخرى تستخدم كما سنرى في نجران. لا تتداول هذه العملات الصغيرة في أي مكان في هذه الأنحاء، مثلاً في ظهران الجنوب يستبدل ما تبقى من الريال بحبوب البن أو الذرة بأسعارها السائدة. بصفة عامة، فإن الريال والزلطة عملتان يستعملان في الأسواق المحلية.

يوجد سوق أيام السبت ويسمى سوق السبت في الطريق إلى شعار، إلى جانب سوق الخميس بخميس مشيط وسوق الجمعة (أعتقد) في أبها، وقد زرت سوق شعار خلال هذه الفترة -ويعرف بصفة عامة بسوق بني رزام التابعين لبني

مالك في عسير-، وبالطبع كان هنالك سوق الأحد لرفيدة. كانت الموازين السائدة في هذه الأنحاء هي الصاع والعكة يعادل الأخير زنة ٤٥ ريالاً أو ٤٠٠ درهم والتي يعادل ٣١٢ منها كيلوجراماً واحداً. ويعادل الصاع ثلاث عكات أو تقريباً أربعة كيلوجرامات -بالدقة ٨٤٦١٥٣,٣-. يبنى الدخل على العشر ولكنه حقيقة يجمع على أساس نصف العشر من إنتاج الأرض من الجنس المحصول في كل من بلاد شهران وعسير -مرتفعات أو سراة عسير-.

يصل مجمل الدخل الذي يتم جمعه إلى ٣٠٠,٠٠٠ صاع في السنة من هذه المناطق، نصفه قمح ونصفه شعير يبلغ الإنتاج الكلي ستة ملايين صاع -أقل قليلاً من ٢٤ مليون كيلوجرام- في السنة لكل المنطقة، وتبلغ قيمته، باعتبار ستة أصوع قمح و١٢ صاع شعير للريال الواحد، يصل ذلك إلى ٣٧,٥٠٠ ريالاً أو ١,٨٧٥ جنيه استرليني ذهبي، بقيمة ٢٠ ريالاً للجنيه الاسترليني. لم يكن دخلاً كبيراً بالتأكيد لمساحة كبيرة كهذه.

قادت السيارة، ذات يوم ومعى الأمير وفرقة إلى أعلى وادي أبها مارين بقرية المفتاحة، حيث يتسع المجرى إلى مروج جذابة، حيث كانت أعداد كبيرة من الأبقار ترعى تحت رعاية النسوة. يدخل الوادي قليلاً، أعلى من هذا الموقع، مسيل منشره وعليه الجلاميد ومغطى ببركة ينمو عليها القصب وممتلئة بالضفادع والعلق وسرعان ما كان الجميع يتسابقون يجمعون هذه الكائنات الصغيرة لأجل مجموعتي. كانوا مستمتعين بعبث هذا العمل، وليس الأمير بأحسن حالاً منهم وقد كان مسروراً ولو لهذه المرة. كان هنالك النعناع البري، في هذا الجزء من الوادي، كما كان طائر أبلق جنوب الجزيرة متوافراً وكذلك العصفير أيضاً. اتجهنا إلى منزل ابن ضاوي في رحلة العودة للجلوس في بلكونته عند الغسق نطل على

أرض المعرض وحديقة الحكومة، حينما كانت طيور الحدأة المحلية تهبط لقضاء الليل وكانت الخفافيش المحلية تغادر أعشاشها للصيد.

أثناء إقامتي اغتنمت أول فرصة لأجل الحصول على منظر جيد لأبها وما جاورها، وذهبت لزيارة القلعة التركية على جبل ذرة والذي بدا كأحسن موقع للمراقبة لهذا الغرض. رافقني كل من محمد البسام وأحمد الهليل الذي جلب معه دليلاً محلياً جيداً، وبعد أن استعدنا بتجهيز غداء خفيف، تمكنا من قضاء عدة ساعات نشاهد المنظر مع الكثير من المتعة والفائدة، نتحدث حول التاريخ الماضي للبلاد راصدين كل سماتها. شمخت قمة التل إلى علو ٤٠٠ قدم أو أقل قليلاً، فوق مستوى البلدة، وعلى قممتها حطام القلعة التركية (١٠٠ خطوة مربعة) بقي منها ثلاثة أبراج سليمة وبعض ثكنات للحامية. توجد في القلعة نفسها عدة أحواض مبطنة بالأسمنت لحزن الماء الذي لا بد من جلبه من البلدة. بنى الأتراك -على أية حال- طريقاً متعرجاً منحدرًا على التل، وقاموا بصيانته بتعبئة مستمرة للشقوق التي تسببها الأمطار لكي يتواصل استعماله لنقل الإمدادات المائية، وعربات المؤن وللمدفعية التي تسحبها البغال. لم تهتم الإدارة السعودية بهذه القلاع وكل المتاريس حول أبها قد أهملت لتآكل. وكاد الطريق المتعرج أن يختفي تماماً ويصعب استخدامه فعلياً لأي نوع من المواصلات. كان علينا أن نتسلق بأقصى ما نستطيع. وكانت محاولة مجزية، برغم أنه كانت توجد غيوم ناحية الجنوب والجنوب الشرقي ورياح جنوبيه قوية.

تقع تحت أقدامنا قلعة أبها ومن حولها قوس من القرى يحيط بها إلى شمال الشمال الغربي من موقعنا. ينتظم عدداً من أبراج المراقبة في شبه دائرة حول القلعة على مسافات متباعدة، يبدو أنها تكون حزاماً واقياً في مواجهة الجبال وهذا يشرح -وفي

بلاغة - الاتجاه الذي كان الأتراك يتوقعون منه المتاعب إن كان لها أن تقع - حيث توجد القبائل في مرتفعات عسير - كانت من بين هذه الأبراج ذرة عند أحد الطرفين تجاه جنوب الجنوب الشرقي تحرس القدوم من ناحية السهول عن طريق وادي ضلع . وكانت قلعة عوافة عند الطرف الآخر، وتخدم هدفاً ماثلاً، فيما يخص الطرق من السودة وشعار - حيث بالطبع كانت توجد الحامية التركية لحراسة طريق النقل - . وتوجد بينهما ستة مواقع خارجية مدعمة على تل منخفض هي: خرت، وأبو خيال، وجميمة على مسافات تتباين بين نصف الميل إلى الميلى من ذرة، إلى الجنوب الغربي، والجنوب، بينما تقع ثقل ودقل وشمسان على بعد ميلين ونصف الميل إلى ٤ أميال بعيداً ناحية الشمال الغربي. تقع شمسان، مثلها مثل عوافة، إلى اليمين من طريق محاليل (شعار)، وكانت البقية تختص بمقاومة أي تجاوزات من مدخل وادي ضلع .

بصورة عامة تسمى الجوانب الشرقية للجبال العظيمة «الشرقية»، والتي ينبعج من جوانبها الرفيعة حوض سيل وادي أبها الذي يقف فيه، على مسافة ميلين ونصف الميل من ذرة ناحية الغرب، البرج المنفرد العثربان على مسافة الميلى من أولى قرى أبها وهي المفتاحة .

توجد قرية صغيرة في رافد صغير يدخل وادي أبها من جانبه الأيسر عند قابل تسمى ضبعة على مجراه الأسفل، بينما تقع قرية صغيرة أخرى تسمى سفية على الجانب الأيسر للوادي الرئيس قليلاً إلى أسفل. يدخل الوادي، فيما وراء منحني كبير عند نصب في انسيابه تجاه الجنوب الشرقي، وتقع إلى الجانب الخارجي لمناظر التي بالقرب منها توجد قرية محمر الصغيرة، أيضاً على الجانب الأيمن، إلى جانب قرية أخرى صغيرة تسمى بصرة في مواجهتها على الجانب الآخر. تتكون موشايه وقد ورد

ذكرها من قبل، من عدة مجموعات منازل على امتداد مجرى قصير يتصل بالجانب الأيمن للوادي، وينحدر عبر طريق خميس مشيط. تقف، أسفل هذا الملتقى قريتا العرين الصغيرتان على جانبي وادي أبها، الذي ينحني بعد ذلك جهة اليمين إلى قعد وهي قرية صغيرة على الجانب الأيمن، وعلى مسافة نصف الميل إلى أسفل، حيث يوجد منحني آخر إلى اليمين يقوده ماراً بدرا وأبو نعمان في مجراه تجاه وادي بيشة. انتصب بناءان على هيئة القلعة على تلّين إلى الجنوب من الطريق الرئيس يقومان بحراسة الأرض الواسعة لحقول الذرة الصفراء إلى الشرق منهما، إنهما يكونان قرية ثبطة الصغيرة. تعطي هذه القائمة مسحاً شاملاً لكل المناطق المأهولة مكوّنة ما يمكن اعتباره أبها الكبرى، يقدر عدد السكان فيها كلها، بما في ذلك العاصمة حوالي ٧٠٠٠ و ٨٠٠٠ نسمة إلى ١٠٠٠٠ بالمناطق الخارجية.

يواجه المرء السلسلة الجبلية العظيمة، إذا ما أدار ظهره ناحية هذا المنظر، لكل من القمة والحافة لهضبة شبه الجزيرة العربية. أنها السلسلة الفقيرة للجزيرة العربية، وفيما يليها فإن كل الأودية تنحدر في شقوق عميقة وممرات ضيقة بين سلاسل شامخة، ممزقة، مستعرضة، تجاه البحر.

يوجد صعد واسع وعميق أمامنا مباشرة ناحية الجنوب، في الجبال التي تشمخ عالية في انحدار على جانبي الهاوية الفاعرة، المنسقة، وكأنها تتشاءب وهي تقود إلى وادي ضلع وعلى جانبها درب البغال. وينحدر إلى أسفل شق عميق يصل وادي عتود، غير المجرى الذي يحمل الاسم نفسه في خميس مشيط، والذي يجري بعد ذلك عبر سفوح جبلية تضمحل باستمرار إلى القرية الكبيرة درب بني شعبة التي تملكها قبيلة من تهامة بالاسم نفسه، ثم يعبر سهل تهامة إلى الشقيق

حيث يدخل إلى البحر . عند الموقع الذي ينحدر فيه وادي ضلع والذي يبدأ في الأرض الصعبة حول قلعة جميمة ، وينساب ناحية الشرق لمسافة الميل الواحد قبل أن يدور جنوباً إلى النطاق المقاوم للترسب والذي يقع على مسافة نصف الميل من موقعنا ، قليلاً ناحية الجنوب الشرقي ، وهنا وإلى أسفل قليلاً ، يتصل الوادي بمجرى سيل آخر من الشرق ، شعيب قرضة الذي يبدأ في القمم العليا لمجار بقمته العظيمتين الشامختين من سلسلة جبلية مثلمة طويلة تمتد إلى الجنوب الشرقي ، وينساب عبر شق عميق حتى يتصل بضلع . تمتد حافة الفجوة التي يقع فيها ضلع ، من نقطة تبعد حوالي نصف الميل من موقعنا ، قليلاً ناحية الجنوب الغربي ، إلى أخرى تبعد ميلين ونصف الميل شرق الجنوب الشرقي لقرية ذرة ومنها يستدير إلى اليسار ليتصل بالأرض المرتفعة على مسافة ثلاثة أميال ونصف الميل أو أربعة أميال إلى الجنوب الشرقي من موقعنا .

تكوّن الفجوة شفة ممزقة ومن فوقها من ذرة يستطيع المرء أن يرى الجلاميد الساقطة وكتوف الهاوية - منظر عظيم ، لكنه كالح . تشمخ من جانبية كتل الجبال العظيمة لرخمة إلى اليسار وضمرو إلى اليمين وهي شديدة الانحدار خارج الوادي وتسمو إلى ارتفاع ٨٠٠٠ قدم فوق سطح البحر . تقف الأولى بشموخ وجدارها يتوج بقمم ثلاثة مثلمة ، بينما يرفرف ضمرو بلطف إلى هضبة حادة القمة إلى الجنوب من ذرة ويستمر شمالاً على سلسلة جبال نبشة بقمة عالية ناحية الجنوب الغربي وقمة نهران المستديرة في نعومة حيث تصل السلسلة إلى ارتفاع متوسط ٨,٥٠٠ قدم فوق سطح البحر ، شيئاً ما تجاه الغرب . يستمر الشريط ، فيما يلي هذه ، لسلسلة جبال الكوثرين وحليفة منحدره من جهة جنوب الجنوب الغربي إلى شمال الشمال الغربي ، على امتداد سلسلة ذات قمة عالية ، ناحية الغرب ، بينما

خلف هذه يوجد ظهر جرده. وهو مرتفع ذو منحدرات مكسوة بالعشب تنتهي في فجوة خفيفة شمال حليفة فوق أرض راسية بارزة، تستمر بواسطة سلسلة جبلية مسطحة، تحملها كتلة السود العالية وفيها أعلى قمة في السلسلة الجبلية، على ارتفاع ٩٠٠٠ قدم فوق سطح البحر وهي أقصى نقطة تجاه الشمال الغربي يمكن رؤيتها من ذرة.

لقد ذكرت من قبل رخمة على الجانب الآخر من فجوة ضلع والتي يحجب جدارها الصخري الشديد الانحدار المنظر الذي يقع من ورائها في ذلك الاتجاه - جنوب الجنوب الشرقي - غير أن شريط الجبال التي تكون امتداداً لهذا الحاجز، يستمر شرقاً، غير أنه يميل بعد ذلك جنوباً بجوار مجار، الذي ذكرناه من قبل متبعاً لوادي قرضة والسلسلة الجبلية الضخمة الطول المسطحة (بركانية) لتمنية ذات العقد والثلثات. وتقع نهايتها بعيداً عنا قليلاً ناحية الجنوب الشرقي. تقع سلسلة جبال أحد إلى الشمال من هذه النقطة وإلى يسارنا، وقريباً منا، وتشاهد قمة بركان القرن ناحية الشمال الشرقي. ويقع رخيبي أخيراً بعيداً إلى الجنوب فوق التلال الممزقة، مكوناً الجانب الأيسر لوادي عتود، وهو كتلة مرتفعة لتهامة. وكان الحاجز من السود إلى أقصى طرف لتمنية نبيلاً من تلال عالية وسلاسل جبلية ذات حافة مهدبة وقد دخلنا فيها.

من بين النقاط القريبة المهمة، كانت هنالك مجموعة من القرى الصغيرة، وحقول الذرة الصفراء، في المجرى العريض الضحل لشعيب الشرف الذي يخرج من أرض صعبة أمام تمينة وبالقرب من شفة فجوة ضلع لينساب إلى أسفل عبر أرض صخرية وسلاسل ليتصل بشعيب جيهان في طريقه إلى وادي أبها. القريتان

الوحيدتان الصغيرتان اللتان يمكن رؤيتهما من هذا الموقع من ذرة في اتجاه أعلى الوادي، في هذا المجرى، هما حصن الأعلى -على بعد ميل ونصف الميل من موقعنا- والعمارات -حوالي ثلاثة أميال-. تقع أسفلهما القرى الصغيرة هضبة، والمناسم، والبا والفلاح وأخيراً الحصن الأسفل، على بعد ميلين ونصف الميل من موقعنا. تكون هذه القرى وتراً يقع قليلاً ناحية الجنوب الشرقي من ذرة. يُوجد إلى الغرب من هذه، وعلى بعد نصف ميل فقط منها حقل منفرد في حقول صخرية تسمى قيشا! يمكننا رؤية الطريق وهو في استقامة واحدة مع قمة السوداء، وهو ينحدر شيئاً ما إلى حيث تقف تلال غاوة بارزة كأنها الكتف حيث تستدير ثم تختفي فوق حاجب الجبل، وبرزت في هذه الأثناء، بعيداً ناحية السفوح الجبلية السفلى، قمتان، هرميتان غير أنهما ليستا بالحادتين ولكنهما مرتفعتان جداً، ومن خلفهما يمكن رؤية طريق محاليل (شعار) مختفياً فوق الممر المنخفض المعلم بقرية أم الركب الصغيرة.

هكذا كان المنظر الذي يشاهد من ذرة والذي لم تقع عين أوروبي غربي عليه. هكذا كنت أفكر حينما بدأنا نزحف إلى أسفل على جانب التل الصعب، ومنه إلى بلاد صخرية ظهرت فيها دلالات محاولات سابقة لتنظيفها وإعدادها للزراعة في مساحات من تربة هنا وهناك. وجدت بجوار واحدة من هذه دائرة كبيرة من صخور خشنة كالأردواز، وما بدا كأنه القبر في مركزها. وحين السؤال عنها، اتضح أنها قبر لأوروبي! كان الأتراك هنا، كما ذكرت من قبل، ولزمن طويل قبل عام ١٩١٨م، ويدّعي بعض الأتراك أنهم، في الاعتبار، أوروبيون.

يمكن -على أي حال- بصفة إجمالية، أن نعد الأتراك عنصراً آسيوياً، غير أن هذا القبر كان لإغريقي، بلا شك إغريقي لافانتي من أولئك الذين كانوا يزورون الموانئ البحرية على السواحل العربية مثل جدة والحديدة، ولكنه إغريقي على كل

حال، وربما من أصل أوربي، وبالطبع كان مسيحياً. كان هذا الإغريقي بالذات، ويدعى خواجه بولو (السيد بول)، كما يدعونه، تاجراً محترماً جداً، وقد سعى إلى تكوين ثروته منذ ٣٠ عاماً في بداية احتلال الجيش التركي وعاش ومات في أبها. جاء ابن شقيقته ويسمى سبيرو من الساحل ليدفن خاله في هذا القبر غير المناسب في العراء، ولتصفية أعماله، استغرق ذلك ٢ أو ٣ سنوات قضائها في أبها. وعليه، لم أكن أنا، بعد كل ذلك، أول أوربي يزور هذه البلاد. اتخلى الآن وإلى الأبد عن أكاليل الفتح لذلك الرجل الميت في ذلك القبر الذي يجب أن يساق إليه كل الشرف لمغامرته المنفردة في هذه الأرض القاسية. وإذا عاش سبيرو، ووقعت عينه على هذه السطور، فسيذكر أن سجلات أعمال خاله قد تم تأمينها ضد النسيان.

لا يعرف رفاقي السنة التي مات فيها ذلك الخال، كما لم أستطع تحديدها باستفساراتي اللاحقة، غير أنه ربما كان يعرف الجنرال سليمان شفيق باشا، والي هذه المرتفعات في بداية هذا القرن، أو مَنْ قد خلفه وهو حيدر باشا، الذي شغل الوظيفة نفسها مدة عام واحد فقط، أو إذا عاش حتى فترة الحرب العظمى، كان آخر الولاة الأتراك هو الجنرال محيي الدين باشا، الذي حكم أبها مدة ٥ أو ٦ سنوات، وحافظ على اتصالاته، بطريقة غامضة أثناء الحرب، مع الجيوش التركية في المدينة ودمشق، عن طريقهما بالقسطنطينية نفسها.

قابلت مؤخراً، واحداً من هؤلاء الرجال العظام، هو سليمان شفيق باشا، في سنوات عمره المتقدمة كان أباً، بالمناسبة، لثلاث بنات جميلات، إحداهن فازت بمسابقة «آنسة تركيا» في مسابقة جمال عالمية، قليلاً قبل هذا الوقت في جدة

والطائف، حيث كان يقضي شتاء حياته كضيف ومتقاعد لدى ابن سعود. كان ملتحقاً بالفرع الهندسي للجيش التركي وإليه يعزى الجسر ذو البناء المتين، وال جذاب، فوق وادي أبها، الذي يصل قابل مع الجسم الرئيس للبلدة. وتمكنت من رؤية الفيلا التي قام ببنائها لنفسه في ضاحية قابل.

ذكرت سابقاً، في حديثي عن الحكام، أن شويش (بن ضويحي المطيري)، أول حاكم سعودي، بعد فترة ابن عايض، والتي بدأت بعد مغادرة الجنرال محيي الدين وذلك بعد الحرب العظمى. كان شويش قد خلف في منصبه بواسطة ابن عفيصان، بعد حملة الأمير فيصل، وكنت أعرفه حاكماً على الأفلاج في عام ١٩١٨م. جاء بعده ابن جيهان^(١) الذي لا أعرف عنه شيئاً والذي ظل في الوظيفة لوقت قليل ثم خلفه المهيب عبدالعزيز بن إبراهيم، والذي، فيما بعد، نقل إلى المدينة وظل هناك لعقد من الزمن حتى عام ١٩٣٦م، حينما قبل الملك استقالته في عشيرة قبل أن أبدأ هذه الرحلة. ثم صار عضواً، من حينها، في مجلس الوكلاء في مكة، حتى وفاته عام ١٩٤٦م أو ١٩٤٧م^(٢).

حينما غادر أبها، جاء في مكانه عبدالله بن عسكر الذي توفي عام ١٩٣١م أثناء إجازة اضطرارية من وظيفته، حيث ترك أحد أبنائه ينوب عنه. استمر الأخير يقوم بدور الحاكم حتى حل محله الأمير تركي السديري، الذي أصبح من بعدها صاحب المنصب وبمساعدة أخيه خالد، حتى انتقال الأخير إلى تبوك حاكماً على

(١) تذكر بعض المصادر أن الذي عقب شويش بن ضويحي المطيري أميراً على عسير هما عبدالله بن سويلم ثم فهد العقيلي، ثم جاء سعد بن عفيصان وخلفه محمد بن جيفان وليس ابن جيهان كما ذكر فيلبي هنا . (المراجعون).

(٢) الصحيح أنه توفي في شهر رجب من سنة ١٣٦٥هـ، الموافق ١٩٤٦م. (المراجعون).

المنطقة الشمالية في عام ١٩٤٨م. كانت هذه هي قصة أمراء أبها - أتراك، ومحليين، وسعوديين -وبالتالي- كاملة لفترة ٤٠ عاماً- تلك الفترة التي بدأت بمحنة وانتهت باستقرار سلمي وُضع تحت الاختبار لمدة عشرين عاماً، ويبدو أنه باقٍ.

كان من البديهي أن أقوم بزيارة السودة وشعار أثناء إقامتي في أبها. غير أنني في هذه الأثناء، شغلت نفسي بالبلدة وما جاورها. كان البعوض موجوداً، ولكن ليس بالكثرّة، كما في خميس مشيط وشعيب حجلا ويبدو أنه غائب عن هذه المرتفعات، علماً بأن إقامتي داخل منزل قد تكون سبباً في فشلي ملاحظة البعوض. يوجد في المنزل الكثير من البراغيث والبق التي كانت صحبتها القبيحة تمحو من آثارها ملاحظة نوعين من الفراشات خطافية الذيل. كانت فواكه أبها مخيبة للآمال، فقط المشمش والتوت من مزرعة أحمد الهليل. لم تكن الطيور بأقل تثبيطاً للآمال. كانت طيور البلبل واليمام، والعصافير وأبلق جنوب الجزيرة، في كثرة وطيور الحبابك وعششها. كان من الطبيعي مشاهدة كل أنواع الغربان، وقد سبق أن ذكرت الحداة كما لاحظت السُّبد.

كان هذا كل ما شاهدته في جوار أبها غير أنه هناك، وفي الجبال، ستكون القصة غير ذلك. شاهدت، فيما يخص النقوش، إلى جانب تلك التي سبق ذكرها، نقشاً دينياً باللغة العربية بالقرب من بيت المصري في مشية، بينما نقش الجنود الأتراك في حامية ذرة أسماءهم على هذه الصخور الكثيرة مع أشكال من حين لآخر لبشر وحتى لسيارات، والتي بلا شك لم يروها في هذه الأنحاء والتي ربما ذكرتهم -في المنفى- بمسيرة الحضارة في أجزاء أخرى من الإمبراطورية التركية.

رتبت رحلتي إلى السودة على أن تبدأ في عصر يوم ٨ يونيو، وكنت ميلاً إلى أن أقوم بملاحظاتي للنجوم في الأمسية السابقة، وعند الساحة بجوار برج القلعة العظيم. تحرك قطار الحمير، حاملة متاعي، بعد منتصف النهار، للرحلة الطويلة إلى أعلى الجبال، بقيادة سعد وتحت تصرفي طباخ من طرف الأمير. ولحقت بهما، بعد ساعة، بعد أن تناولت الغذاء مع الأمير ومع حرسني، على ظهور البغال من اسطبلات الأمير. استغرق وصولنا إلى الممر عند القمة التي يطل عليها جبل غاوة الذي يشاهد من ذرة ناحية غرب الشمال الغربي من قلعة أبها، حوالي الساعة وربع الساعة. كان على رأس فرقتي، عبدالله بن راشد من أبناء قبيلة علكم (عسير)، أحد تابعي الأمير، ويبدو أنه ملم بمعرفة البلاد إلى جانب رغبته أن أكمل رحلتي بنجاح.

واصلنا سيرنا من الممر، فوق امتداد مستوى فوق أنف التل مع شعيب ضمن على يسارنا منساباً ناحية العُثْرَبَان والمجرى الأكثر أهمية الذي هو شعيب عشرين على يميننا، ماراً عبر منطقة علكم ومنطقة بني مالك - كان شيخ القبيلة الأخيرة هو ابن هشبَل - ومن ثم إلى وادي بيشة والذي يتصل به أسفل وادي أبها. يبدأ الوادي بالفعل عالياً على تل السودة نفسه، ويجري مسارنا، موازياً له تقريباً، في معظم الوقت. تقع إلى البعيد وعلى يسارنا، بعض حقول ومباني المخضَّ عالياً في الجبال، بينما عند نهاية المسافة المستوية عبر أنف غاوة هبطنا من حقول ذات مساطب لبعض المحاصيل البقولية إلى قرية السحراء ذات الحجم المعقول، بارزة في جمال فوق المساحات الزراعية المعتبرة على جانبي المجرى. تتبع القرية - المبنية من الحجارة على تل منخفض - بني مغيد (من عسير) وكانت على ارتفاع ٤٥٠ قدماً فوق أبها. لا بد وأن يكون ممر غاوة على ارتفاع ٨٠٠ قدم فوق مستوى البلدة.

كان سفرنا مستوياً لفترة على امتداد الوادي، في اتجاه غرب الشمال الغربي، غير أنه، بعد نصف ساعة بدأ الطريق يصعد في انسياب، تاركاً المجرى على يميننا يتحول وبسرعة إلى غابات.

كنا خلال نصف ساعة عند ارتفاع ٣٥٠ قدماً فوق السحراء، وتفرع الطريق على اليمين، متجهاً إلى وادي تلعة هبطنا هنا قليلاً، قبل أن نصعد مرة أخرى تدريجياً، ولكن في هدوء، إلى أعلى جانب الجبل، الذي كان مخضراً بكثافة الأشجار منها شعثاً، وآل جباراً، وعشيرة -ممتلىء، مثل الوادي، بأشجار الطلح جيدة النمو. وصلنا عند هذه النقطة إلى أول أشجار العرعر الجبلية، والتي سرعان ما تحولت إلى غابة حقيقية، فوق مستوى الوادي، حيث رأيت حقول قمح، على وشك الحصاد، والورد البري ويسمى العبل في قمة إزهاره. كان منظرًا رائعاً بعد صحراء الأسابيع الماضية وبعد قفر السفوح الجبلية الصخرية. تزداد البلاد جمالاً أكثر وأكثر مع كل خطوة نخطوها إلى أعلى.

تقع قرية حسن جاران بعيداً، إلى اليمين من موقعنا، على جانب تل، فيما يلي المجرى، في مسيل شعيب عكس الصغير، وظهرت غابات العرعر الحقيقية، بعد مواصلتنا السير لمدة ١,٥ ساعة من السحراء، تكسو جانب التل سلسلة جبال غاوة التي وصلنا إلى قمته بعد نصف ساعة. كنا هنا على ارتفاع ١٥٠٠ قدم، تقريباً، فوق أبها و ٨٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر. كنا فعلاً في الجبال، وهناك فيما وراء الحافة العليا لغابات العرعر، نظرنا إلى حقول القمح والشعير الذهبية لمنطقة السوداء، تهبط في مساطب على سطح محسن كشرائط من لون أصفر ذهبي ومن خلفها العرعر الداكن الخضرة مبعثراً في مجموعات صغيرة

أو كبيرة حول القمة . لا تزال محاصيل قمح الشتاء والحبوب في انتظار المنجل اليدوي للحاصد، بينما كان الشعير قد تم حصده تقريباً . كانت الأكوام لا تزال في صفوف في حقول الجدائه . مررنا بعد قليل بأولى قرى الجبال وهي دحيلة على مسافة نصف الميل وعلى يميننا تحت جبل يسمى مرتمة وهي مجرد قرية صغيرة في وسط حقول قمح واسعة . أصبح الطريق، فيما يليها، صعباً جداً، وفي بعض الأجزاء، صخرياً جداً ومتعرجاً، مخترقاً غابة عرعر، تتخللها هنا وهناك مناطق مكشوفة لغرلة القمح . كانت المسيرة صعبة جداً بالنسبة للحيوانات، وقد تعثرنا كثيراً في الصخور عند الغسق ذلك لأن الشمس قد غربت بمجرد مرورنا بدحيلة لنصل أخيراً إلى قرية السودة نفسها، أقل من ٢٠٠٠ قدم فوق أبها، وحوالي ٨٩٠٠ قدم أو أكثر قليلاً، فوق سطح البحر .

كانت السودة قرية غريبة جداً، ليست بالكبيرة، ولكنها مكوّنة من صف مصمت من منازل مظلمة ذات طابق واحد، بلا شوارع أو مماسٍ ولا أبواب إلا في المنازل التي تكوّن المحيط الخارجي والتي تتجه مداخلها كلها إلى الخارج . لا توجد وسائل للحركة الداخلية من منزل إلى آخر، غير أن كل منزل - وكلها تتكوّن من غرفة جلوس واحدة ملحق بها مطبخ، ومن حين إلى آخر ارتدادات تبدو كأنها دواليب أكثر منها غرف - به درج واحد ثابت، يقود من الطابق الأرضي إلى السقف عن طريق كوة خشبية . تستخدم هذه الكوة لخروج الدخان المتجمع في الغرف وتساعد السكان بوسيلة يزورون بها بعضهم بعضاً، دون الحاجة إلى مغادرة القرية . إذا ذهب أحدهم لزيارة آخر، فإنه يطرق، ليس على الباب، وإنما على الكوة . كان السبب من وراء هذا الترتيب الغريب واضحاً، يلاحظ في حالة عدم الأمان التي ميزت هذه المرتفعات حتى وقت قريب، مما اضطرهم إلى سد وغلق

كل الأبواب ليلاً، لتحويل القرية إلى حصن مستقل. لم يكن للسكان الوقت الكافي للتفاعل، خلال ١٥ عاماً مع نظام السلام والأمان الجديد. تبدو كل القرية كأنها ذات سقف واحد مثقب بالعديد من الكوآت ومقسم إلى منازل مجزأة بواسطة سلسلة طينية منخفضة ارتفاعها لا يزيد عن ١٢ و ١٨ بوصة. كان البناء الوحيد، المكشوف للسماء، هو المسجد الذي يقع في وسط القرية، وبه درج من سلالم طينية عند السور المحيط به (سور القرية) الذي يقود إلى مدخله الوحيد.

استقبلنا بكرم ظاهر من قبل أسرة تسكن أحد المنازل المتجهة إلى الخارج في القرية. مررنا عبر صالة تشبه النفق المظلم إلى غرفة ذات حجم لا بأس به، أيضاً مظلمة وممتلئة بالدخان. كانت فرقنا التي تحمل العفش قد سبقتنا إلى هنا لتعلن عن قرب قدومنا، وكان كل شيء جاهزاً لاستقبالنا. تجمع لدي الانطباع، خلال الظلمة الكئيبة بأن الغرفة كانت ممتلئة بالناس -الوجوه المألوفة لزملائي، ومما لاشك فيه أن مضيفينا من أعيان البلدة وأخيراً وليس آخراً، نسوة المنزل، غير متحجبات ويجلسن على مساطب منخفضة مبنية من اللبن من حول الجدران، بين الرجال، ويشاركن في الحديث فيما يبدو وكأنه أمر عادي، مقاطعات من حين لآخر الحديث، بالذهاب إلى المطبخ والذي يمكنني رؤيته من مقعد التشريف الذي أجلس عليه. كان عدد النسوة، على ما أظن، ثلاثة: منهن اثنتان في وسط العمر، والثالثة، ابنة صاحب المنزل، عذراء مع بعض الغرور بالجمال. كانت الوجبات الخفيفة المعتادة قد تم تقديمها، ومعظمها من مستودعاتنا الخاصة، ذلك لأن هذا المجتمع كان وبكل وضوح مجتمعاً ريفياً فقيراً، ينظر إلى أشياء مثل الشاي والقهوة، والسكر، كأنها كماليات ورفاهية. غير أن لحم الضأن، والخبز، لوجبة العشاء كانا من جانبهم، ناقشنا ترتيبات قضاء الليلة بعد أن انتهينا من تناول وجبة العشاء.

يبدو أنه سيكون موضع نوم كل واحد منا هو مكانه حيث هو الآن، غير أنني لن أفعل ذلك، وأعلنت رغبتني في الهواء الطلق واعترفت بعدم استطاعتي النوم إلاً في خيمة، هذا كان له وقع كالصاعقة على مضيفي الذين حذروني من البرودة الشديدة لهواء الجبال ليلاً. أحببتهم بأنني قد قدمت من بلاد أكثر برودة من بلادهم هذه، أخيراً كانت الموافقة المرححة بالسماح لي بالنوم فوق السطوح. وفعلته بمجرد ما سمعته. وقام سعد بنقل فرشتي ومعداتي التي أحتاج إليها في معسكري، عبر الكوة، بما في ذلك مصباحي اللامع، الذي لا بد وأنه قد أضاء كشعلة المنارة فوق الريف الواسع. كان النوم المبكر هو القانون في القرية، وسمح لي بالذهاب إلى جناحي الغريب، بين الدعوات العالية والآمال من جانب مضيفي ومضيفاتي - هؤلاء قد ناموا في المطبخ - بالأأ أصاب بالبرد.

قررت، بعد يوم مليئ بالنشاط أن أنام مبكراً، ولكن، قبل أن أقبل على ذلك، عند الساعة الحادية عشرة مساءً، قمت بفحص الترمومتر (مقياس الحرارة). كانت درجة الحرارة ٥٥ درجة فهرنهايت وكانت الدرجة الدنيا لليلة ٥٣,٥ درجة. هبطت الحرارة في الليلة التالية إلى ٥١ درجة. نمت طويلاً تحت قبة مدهشة من النجوم في سلام الجبال الهاجعة.

صحوت مع بزوغ الضوء في الصباح عند الساعة الخامسة لأشاهد الشمس مشرقة من بين غمام الشرق البعيد، ومضيئة لحقول الذرة الصفراء الذهبية، تحت أقدامي، ذات المساطب إلى أسفل المنحدر الواسع، المنحني، للتل في شكل مسرح روماني ضخم، وأشجار العرعر على حواف غاوة كأنها المسرح. أحضر لي سعد الشاي من الكهف تحتي وجلست أعبئ الحشرات التي جمعتها بالأمس، التي

جذبها ضوء المصباح، في أوراق، ولأكتب مذكراتي، غير أن موقفني هذا غير القويم سرعان ما أدى إلى هجوم، إذ بدأ القرويون الفضوليون، الواحد بعد الآخر، يمدون أعناقهم ورؤسهم خارج الكوات ويتقدمون في حذر حتى بدا، بعد قليل، وكأنني استقبل سكان القرية، في مقدمتهم كبار السن، يجلسون في وقار، على حواجز السور حول جناحي من السور المشترك، والأطفال ينطلقون على أطراف الحشد وجماعات من نسوة فضوليات هنا وهناك في خلفية الصورة كن بلا شك مستغربات للرجل المجنون الذي قضى الليلة في السطوح. كان أمامي النهار كله، ولم أكن في عجلة من أمري لأقطع روعة حشد كهذا، تقدمت نحوي امرأة دون خجل، لتضع سلطانية لبن طازج بجوار سريري، ومن حين لآخر يتقدم أحد الصغار في خجل، ليرى الحشرات التي كنت قد جمعتها أثناء الليل ويسجل نفسه كزميل في بحثي عن كائنات الأرض سحالي أو جردان أو طيور أو بيض أو أي شيء..

رضخ المتقدمون في السن من رجالات القرية للإجابة عن أسئلتني وأدلوإ إليّ بمعلومات كثيرة والتي منها نظمت التاريخ القبلي المحلي كما يلي: ينقسم اتحاد عسير القبلي - كل النجدين بلا شك - إلى مجموعتين رئيسيتين - عسير الحجاز وعسير تهامة - بناءً على موطنهم إن كان في السلسلة الرئيسة أو في السلاسل المتعارضة والأودية بينها وبين السهل (تهامة) الساحلي. يشتمل عسير الحجاز على أربعة أقسام:

(١) بني مغيد ويرأسها عشيرة آل عايض العشيرة الرئيسة في عسير، وقد تحدثت عن رؤسائها من قبل، وتعيش في الجبال العالية والأودية في الجزء الجنوبي، تقريباً من وادي ضلع إلى شعيب عشان.

(٢) علكم، تقع إلى شمال السابقة من شعيب عشرين إلى شعار.

(٣) ريعة ورفيدة، إلى الشمال مرة أخرى. وأخيراً.

(٤) بني مالك إلى الشرق والشمال الشرقي بالنسبة للقسمين السابقين.

تقع إلى ما وراء هذا الاتحاد، شمالاً فيما يلي شعار، مجموعة قبلية أخرى، تتكون من بللحمر وبللسمر وبني شهر، بينهما إلى الجنوب، من وادي ضلع إلى سلسلة جبال تمينة توجد عناصر شهران التي إلى شرقها وجنوب شرقها توجد عناصر قحطان، رفيده وغيرها. يكفي هذا للأقسام الرئيسة لقبائل السلسلة الجبلية والقبائل المرتبطة بها. أما قسم تهامة عسير فيتكون من سبعة أقسام: (١) بني زيد يرأسه علي بن محمد الحياتي، (٢) آل ثعلب يرأسه محمد الأثري، (٣) بني جونة يرأسه محمد بن سلطان، (٤) بني قيس يرأسه حسن بن أحمد بن متعالي، (٥) بني قطبة يرأسه محمد الشقير، (٦) بني شحب يرأسه أبو عوجه، (٧) بني ظالم يرأسه إبراهيم بن عبدالله بن أم رفيده. يوجد بني قطبة تحت قسم مستقل تقريباً، يسمى عهل العوث. يوضح الترقيم أعلاه هذه القبائل في توزيعها الجغرافي من الجنوب إلى الشمال ممتدة في اعتقادي، من وادي عتود إلى أعلى.

صرفت جمهرتي هذه بعد أن استوعبت كل المعلومات وزيادة، وعمدت إلى الوضوء وارتداء ملابس، لأتتزه بجولاتي حول قمة الجبل. كان معظمها مغطى بحقول الذرة الصفراء، في قنوات واسعة منخفضة مكوّنة الرؤوس لمثل مجاري التصريف هذه كما في شعيب عشرين - كلها روافد لوادي بيشة. كانت الأراضي المرتفعة مملوءة بغابات أشجار العرعر مع الورد البري والزعر والخرامى ونباتات أخرى بوفرة. وفي وسطها كلها، وجدت نفسي في عالم للطيور جديد، وكانت

الجواهر الرئيسة بينها هي: العقعق الحديد والزقيقة الجذابة - اكتشف لأول مرة في اليمن بواسطة فايمان بري Wy Bari ويوجد بوفرة هنا. يغرد بين أفرع العرعر، وخجول جداً، واليمامة اليمنية في أعداد معتبرة إلى جانب يمام الصخور ودخلة بري وقد اكتشفها هو في اليمن، مخلوق صغير، دقيق يختبئ في الأجسام، وقبرة حمراء الرأس تعشعش في حقل الذرة أو تحت الصخور وقبرة متوجة، اكتشفت أول مرة في اليمن، ونوعان من الجشنة وعصافير متزاوجة وقد اصطدت اثنتين في حالة تزاوج والسلوى والحجل الذي وجد لأول مرة في الطائف والذي تحصلت منه على عشر بيضات، والأبلق والهازجة وكثير من السوادية وطيور أخرى يبدو أن معظم هذه الطيور معشعشة. وقد قتلت بالرصاصة قبرة حمراء الرأس وهي في عشها وأخذت فراخها الأربعة للمساومة. وكان مما أضيف إلى مجموعتي، جرد، وأرنب، وثعلب وغيرها، ومن وجهة نظر التاريخ الطبيعي، فإن حملتي إلى السودا كانت نجاحاً منقطع النظير.

لقد نجحت في أن أربط بين مساحتين جبليتين منفصلتين، اليمن في الجنوب وأقليم الطائف في الشمال وأوضح أن المجموعة الحيوانية منهما كانت متماثلة. كان كل هذا الحزام من الجبال واقعاً تحت تأثير الرياح الموسمية، ومناخها، بينما شمال الطائف كانت البلاد الجبلية متممة بكل تأكيد إلى النطاق الصحراوي ومن حيث الثراء الحيواني فهو مختلف جداً من الجزء الجنوبي للحجاز.

كان المنظر مختلفاً بالدرجة نفسها، تجولنا هنا عند قمة السودا بين غابات العرعر، تضربها الرياح وقد نمت وجذوعها ضخمة مشوهة وورق غزير في تضاد مع الأيكات اللطيفة في السفوح الشمالية الأكثر حماية، ذات الشجيرات الطويلة

المشذبة، التي يرغب فيها البناؤون في المدن المجاورة. كان محط العرعر في القمة غطاء نباتي ثري من نباتات زهرية، وأجمت ضخمة هنا وهناك إلى جانب المياه التي تقطر والتي بالكاد يستطيع المرء أن يقول إنها جدول حيث ينمو القصب، والدفل، والزعر العطري، والنعناع البري، والخزامى. عند حافة الجرف هناك صخرة عظيمة كالكتف تدعى الفاس، تبرز في انحدار عنيف إلى مئات الأقدام إلى الهوة المتشابكة عند مخاوية، -ربما أم خاوية بدلاً عن خاوية- لتستمر كحوض سيل عليه جلاميد منتشرة تساقطت في كتل من جبل محطم.

يقدم على الجانب الآخر من الفاس، صدع آخر في صفحة الجبال منبعاً لمسيل آخر يطلقون عليه اسم جو آل ابن نجيم ويتصل به في مخاوية بعيداً، عند الأنف الذي تمتد إليه قدم فاس. يجري، بعد ذلك، المجرى المنتظم لحوض السيل الممتد بين سلاسل منحدرية ليتصل مع شعيب مربة، أيضاً ومن مواليد جانب الجبل، الذي ينساب إلى البحر عبر حقول الدخن الثرية في الدرب في سهل تهامة، والذي يسمى هنا باسم خبت أو البلاد المنخفضة.

تسلقنا إلى قمة فاس، التي ترتفع إلى ٩٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، وعندها تمكنا من مشاهدة منظر باهر للأراضي الرأسية للجرف ناحية الجنوب، كل منها منبع لسيل جارف يهبط في انحدار شديد إلى شبكة من جبال ليشق طريقه إلى مربة والتي رأينا جانباً لها ناحية الجنوب، حيث يلتف إلى اليمين من حول سلسلة جبلية طويلة تفصلها عن مخاوية وتستمر مارة بسلسلة جبال سفحة عرفة وتجري جنوباً لتصل بوادي ضلع في طريقها إلى السهل وإلى البحر. يسمى الوادي من هذه النقطة شعيب درب بني شعبة. تكون كل من سلسلة جبال سفحة عرفة

-الأولى ذات قميتين والثانية ذات قمة واحدة- الحدود القبلية بين علكم على الجانب القريب حيث ينساب جو آل ابن نجيم إلى الأسفل، ورجال ألمع على السفح الأبعد، والذي يجري أسفله شعيب حسوة وهو رافد آخر لشعيب درب بني شعبة، والذي يمكن رؤية مجراه الأعلى إلى الجانب القريب لسلسلة أخرى تسمى الشرفة إلى الجنوب الغربي من موقعنا، والذي توجد على قمته أربعة أبراج مراقبة (للنظام التركي). كان يقع أكثرها ناحية الغرب بالفعل أسفل القمة، قريباً من حيث تنحدر السلسلة الجبلية انحداراً شديداً ناحية القرية المهمة شعيبين التي يمكننا رؤية جزء منها ناحية الجنوب الغربي. يجري وادي الشعيبين إلى ما وراء سلسلة جبال الشرفة، كأنها قائمة على الحراسة فوق القرى، كانت ذات يوم مرصداً عسكرياً مهماً لحماية ممر أبها عن طريق السودة ولا تزال تخدم غرضاً مماثلاً كمركز إداري وتجاري تحت نظام الوهابيين، والذين كان يمثلهم في هذا الوقت عبدالله الدويش وهو تاجر سوري سابق.

ينقسم مجرى الشعيبين عن شعيب درب بني شعبة بسلسلة جبلية عريضة تسمى عقبة رز والتي عند سفحها توجد قرية مهمة أخرى هي رجال ألمع، عند النقطة التي يتحول فيها وادي شعيبين إلى اليمين ليزيد نفسه في مجرى وادي حلي الذي يخترق سهل تهامة إلى البحر عند ميناء حلي. لقد تمكنا بذلك، من فاس، رؤية منظر لاثنتين من أعظم نظم الأودية التي تنسج طريقها إلى البحر عبر المتاهة الحقيقية لجبال تهامة.

تقع عرفة على بعد ميل واحد من موقعنا، وفي خط مستقيم، أما سفحة فهي على بعد ثلاثة أميال وربما كانت سلسلة جبال الشرفة على بعد أربعة أميال. كان الاتجاه العام لخطوط الصرف هذه هو ناحية الجنوب فيما يبدو، إلى أن تصل إلى

الخطوط الحاملة الرئيسة المتجهة غرباً إلى السهل . شمش بعيداً ناحية الغرب ، إلى ما وراء سلسلة جبال سفحة - عرفة ، جبل فخر العظيم ذو القمتين (رجال ألمع) وعلى جانبه القريب وادي الشعبين ، بينما على مسافة ناحية الجنوب الغربي يوجد تلان بارزان يربطهما مرتفع عميق يسمى قرية القفيل وعند سفحه توجد القرية ، وكذلك فقوة - ولها هضبة صغيرة - ، كلاهما في منطقة رجال ألمع . تصعب رؤية سهل تهامة فعلياً فيما يلي هذا الحاجز لجبال صعبة ، بسبب الغيوم الكثيفة ، مما ثبط من توقعاتي أن أتمكن من رؤية البحر .

يقع منبع مخاوية الفعلي ، قريباً من نقطة مشاهدتنا ، على بعد نصف الميل إلى ناحية الشمال الغربي في الحدبة ذات الغابات الكثيفة عند النهاية القريبة لسلسلة جبلية منخفضة تسمى العريض ، ولها حدبة مركزية وحدبة أخرى ثانية عند طرفها البعيد الشرقي وتسمى آل مجدة وتبعد مسافة ميل ونصف الميل من موقعنا . تقع قرب الأرض المغطاة بالعرعر والمسماة ضرره وبها نبع في بطن سيلها الحصوي ، وهو ماء يقطر نازلاً من بين النقر الخشنة في الصخور التي تقودها إلى الهاوية . كانت أقرب الأراضي الرأسية الجنوبية على بعد ميل واحد ، وتسمى جدعة إلى الجنوب الشرقي من موقعنا ، وتقع العشّة ناحية الجنوب ، كما برزت الحفير مع قرية الرحمة على جانب تل من ورائها ، وأخيراً قرية الحرملة التي تقع ناحية جنوب الجنوب الشرقي . يمكننا رؤية حقول مخضّ بين جدعة والعشة إلى الداخل من عند الجرف .

واصلنا تعرجاتنا عبر الغابة ، وتوقفنا للنزهة لتناول الغداء في فرجة مريحة في الغابة فوق منبع مخاوية ، وتحركنا منها إلى أطلال لقرية صغيرة تسمى سحوة ، والتي هجرها أهلها الخميس منذ زمن بعيد ، -فخذ من بني مغيد- بسبب عدم

الأمان الذي كان سائداً، وانتقلوا منها إلى قرية السودة نفسها، التي تبعد فقط بمسافة نصف الميل. تنتمي قرية ثالثة، الضحية إلى الفخذ نفسه، ولا تزال مأهولة، وتبعد نصف الميل من السودة ومن سحوة وتكون القرى الثلاثة مثلثاً متساوي الأضلاع يغطي هذا الجزء من القمة وحقول ذرتها الواسعة. يعيش في قرية المخض وقرية أخرى، بطينة مجموعة من فخذ علكم، غير أن معظم المنطقة الملامسة بين الأرض الرأسية للعشة ووادي ضلع يسكنها بني مغيد، بما في ذلك قرية الرحمة. تحركنا من سحوة إلى نصب الشبرام، وهي ربوة تبرز وتطل على جبال تهامة ناحية الشمال من مجرى الجو الذي لم نتمكن من رؤيته بوضوح من فاس.

كان الوقت ظهراً وكنا قد غادرنا فاس عند الساعة التاسعة صباحاً، غير أنه في هذه الفترة هبت عاصفة فوق جبال تهامة، برغم أن كل شيء تجاه الشرق من الجرف قد نعم بالشمس الساطعة.

تدحرجت سحب سوداء ثقيلة مرعدة شمالاً، مسقطة أمطارها على وادي الشعين وبعيداً إلى وادي حلي، وترتد فجأة جنوباً حاجبة عنا المنظر قبل أن نتمكن من رؤيته كاملاً، لقد رأينا على أية حال، بعيداً ناحية الغرب، الموقع الذي يتصل فيه وادي الشعين مع مجرى آخر من الجرف - واسمه وادي شتعة الذي ينبع من سمّا وهو ممر طريق البغال -، ليكون بداية وادي حلي. تقوم في هذه النقطة قرية شوخان أسفل سلسلة ذات غابات، تكون امتداداً لخط سفحة - عرفة، ربما على بعد أربعة أميال وهو مدى تخليق الغراب. يقع مجرى وادي الشعين إلى ما وراء هذه السلسلة وخلف شوخان، والذي منه، يجري وادي حلي ناحية الشمال الغربي عبر التلال إلى أن يلتف ناحية البحر قليلاً من ناحية الشمال الغربي.

كانت نصب الشبرم أعلى قليلاً من قمة فاس، غير أننا جعلنا من قمة الحدة أهل مجده، أعلى البقاع، معلماً ومرجعاً لتجولاتنا. كان ارتفاعها، بناءً على جهازى اللاسائلى لقياس الارتفاع، حوالى ١٥٠, ٩ أقدام فوق سطح البحر، ولا يبدو بالتأكيد أن هنالك موقعاً أعلى منها فى وادى ضلع وشعار. يفضل الأهالى المحليون هذا الموقع، كأعلى نقطة لديهم، وقد ترك أسلافهم على جلاميدها الجرانيتية سجلاتهم للحيوانات التى كانت معروفة لديهم - الغزلان، والوعل، والمها، والنعام، إلى جانب خربشات من طبيعة غامضة لم أفهمها. وجدت فى الإجمالى سبع مجموعات منفصلة لمثل هذه الرسوم الصخرية، كلها بدائية نحواً ما وتقريبية، محفورة على سطح الجلاميد، وقد يكون هنالك الأكثر منها.

كان المنظر العام كما وصفته من قبل، غير أننا نستطيع الآن رؤية رابية حمومة فى الجزء الأعلى من وادى بيشة، وجبل ضحك فى السفوح الجبلية الشرقية. ظهرت سمات أخرى ناحية الشمال الغربى، حيث تقع الرأس الأرضية لمطمى وحقول المحجر الموحلا - ولا توجد بها قرى - أمامنا على بعد الميل الواحد والسلسلة الطويلة. تقع تحلال منحرفة حولها من الجانب الأيمن، وفيما يليها تقع الهضبة المسطحة - الشرف، مع عدد كبير من الحقول وجبل رثبا. كوت كل هذه جزءاً من الجرف وما جاوره. تقع الحقول بين السودة والضحية - بالمناسبة: كل هذه القرى الجبلية مبنية من الحجر، علماً بأن الحجارة غير مصقولة - كما ترى من هنا، فى منخفض من مساطب، يضيق من عند وتر أعلى إلى مقدمة ضيقة عند النهاية السفلى. أعطاني هذا المنظر، مرة أخرى، الانطباع بمسرح روماني صغير، مثل المنظر الأوسع على الجانب الشرقى من السودة.

تقع القرية الأخيرة على بعد ثلاثة أرباع الميل ناحية الشرق من موقعنا، تقع الضحية فقط على مسافة ربع الميل على الخط نفسه تقريباً. كانت كل من حزم وكنف رمادي، كلاهما ناحية شمال (الشمال الغربي) أقصى نقطة شمالية، استطاع دليلي من السودة أن يسميها لي، غير أنه توجد أرضان رأسيّتان بارزتان، إلى البعيد وفي الاتجاه نفسه قيل إنهما أرضاً أجنبية تابعة للبحر. قيل لي إن النقاط الإدارية الحدودية بين السراة وتهامة، كانت قمتا فاس ونصب الشبرم.

عدنا إلى السودة قبيل الغروب وجلست لحظة فوق السطح أراقب السحب الوردية للغروب البديع، مظلاً حواف الأشجار التي جمّلت الأرض المرتفعة عند حافة الجرف.

هبطت، مع تقدم الليل إلى ظلام غرفة الجلوس الكهفية، حيث أمضينا الساعة التالية أو الساعتين في حديث على أكواب القهوة والعشاء وقهوة أكثر وحديث أكثر في لقاء لطيف. كان موضوع «المرشد» هو الأكثر استمرارية للخلاف بيني وبين رفاق سفري في الجزيرة العربية ليس بوصف كل منهم بأنه «مرشد» ولكن في مقدرة المرشد كخبير في الجغرافية المحلية. تفهم المرشد عبدالله بن رشيد، برغم أنه من مواليد المنطقة، من أحاديث زملائه في خدمة الأمير أن النهج النجدي المثالي هو أن تنحصر مهمة المرشد فقط في توضيح الطريق، وليس في إشباع فضول المسافرين. أنا أخالف هذا النهج بالطبع، غير أن الرجال المحليين الذين يعرفون جغرافيتهم، كانوا بصفة عامة إلى جانبي، وأهم ما برز كان وعدهم بأنه في طريق العودة إلى أبها في صباح الغد، فإن أحسن رجل لديهم، مقيم في الضحية، سيكون تحت تصرفي كمرشد جديد. عدت إلى السطح، تاركاً رفاقي

يواصلون الحديث، أو النوم الخفيف، حسب المزاج. وصحوت في اليوم التالي قبل الساعة الخامسة صباحاً وبدأنا الرحلة بعد حوالي الساعتين بعد ذلك، سيراً على الأقدام خلال الجزء الأول للطريق، علماً بأن حمير العفش ومرافقيها قد تحركت مسبقاً على الطريق النظامي.

وصلنا بعد تتبعنا حافة الجانب الغربي الطويل للقرية تجاه هضبة ذات أشجار كثيفة، ناحية الجنوب الشرقي، إلى ممر ضيق طبيعي مكوناً الفاصل بين شعيب تحلال الذي ينساب شمالاً ماراً بالسلسلة الجبلية التي تأخذ الاسم نفسه، والتي سبق ذكرها، ليتحد مع شعيب آل قاسم، وهكذا لري قرية الحمرة إلى أسفل وفي مجرى آخر، وشعيب خبيبي يجري في الاتجاه المعاكس عبر الحقول المنحدرة للقرية الجميلة حربة تجاه قرية عثربان ثم عبر شعيب بالاسم نفسه إلى وادي أبها. صعدنا مرة أخرى، فيما يلي آل القاسم، الذي هبطنا من مستوى قمته، إلى سلسلة منخفضة ناحية الغرب قليلاً من قرية آل محسن، وهي مجموعة من المنازل المتهدمة بين حقول متساوية. كنا هنا على ارتفاع ٢٥٠ قدماً على سفوح السوداء، والجانب الرفرفي من التل من خلفنا، بينما كانت توجد إلى جنوب آل محسن والتي عبرنا بها سريعاً بعد حين، قريتان صغيرتان هما سوق ومعجزة في الطريق إلى آل رحمة وعلى حافة الجرف.

واصلنا السير إلى الطريق الرئيس، عند الساعة التاسعة والربع صباحاً، مرة أخرى عند مضيق غاوة وصعدنا من عنده إلى أعلى السفح المنحدر للتل نفسه، الذي كانت قمته على ارتفاع ٨,٧٠٠ قدم فوق سطح البحر. كانت سفوحها الخارجية، ناحية الجرف، عارية وصخرية، بينما كانت جوانبها المواجهة للوادي،

أسفل مغطاة بالعرعر بكثافة. تقع قرية صغيرة تسمى كفية عند قاعدته في مسيل ضحل على الجانب الجنوبي الغربي يسمى سبا والذي عند اتحاده مع خبيبي تقع قرية السوق الصغيرة مواجهة لوادي ضحل آخر به قريتان صغيرتان لشط الخضران. ظهر عدد من القرى الصغيرة ناحية الجنوب على جانبي مصرف خبيبي وهي: رأس السر وهي الأقرب إلينا على بعد الميل الواحد، وقرن ناحية الجنوب على بعد ميلين من ولجة التي تقع خلفها عن قرب. كان لكل قرية من هذه، بالطبع حقول ذرتها الصفراء، مبعثرة حولها، ولا بد أن يكون هنالك بلا شك، مجموعات أخرى سكنية زراعية في طبقات هذه الجبال، لم أرها. تمثل قرية خبيبي -بالمناسبة- الحدود القبلية بين علكم وبني مغيد والأخير تشمل القرن، الولجة، شط الخضران، والرحمة، وتضم علكم، بقية القرى الصغيرة التي ورد اسمها. تكوّن المخض بمفردها، عالية في الجبال، جزيرة من علكم في منطقة بني مغيد.

تعرف قمة غاوة محلياً باسم قرن الفلية، والتي من عندها يهبط مسيل يسمى شعيب غاوة، عن طريق مضيقها، الذي ورد ذكره، إلى القرية الجميلة ذنب غاوة في مساحة واسعة مستوية، في القاع. ليتصل هذا المسيل في هذا المكان، مع شعيب عشان أو قريباً منه.

توقفنا عند هذه القرية، على ارتفاع ٦٠٠ قدم على سفوح جبل غاوة حوالي الساعة ١١ صباحاً، لأجل تناول وجبة الغداء وبعض الراحة، التي كانت بالنسبة لي هي صيد الطيور. قمت بمطاردة زوج من طيور العقعق داخل أجمة من أشجار العرعر -تسمى محلياً ضوضية- غير مهتم بنصيحة مرشدي لأن أتركهما وشأنهما، ذلك لأنني لن أجد مثل هذه الطيور المراوغة. ولم أتحصل، حقيقة، على أيٍّ منها

عند القمة، برغم أنني قد شاهدت العديد منها وأطلقت الرصاص على أحدها فسقط كالحجر عبر الأوراق الكثيفة للعرعر. توقعت أن أجده ميتاً عند أسفل الشجرة، وعبثاً كانت محاولة العثور عليه! أصررت هذه المرة أن أحصل على عينة مهما كانت مضايقات المطاردة، ويبدو أن الحظ قد واكبني، ذلك لأن الطيور تظل في تجمعاتها ولا تغادر منطقة الخطر، التي توجد فيها، أعشاشها بلا شك. لمحت أخيراً الطائر الذكر مختبئاً في كثافة الغطاء النباتي التحتي عند أسفل شجرة عرعر طويلة، وبدأت أتقدم وبحذر على طريدي التي كانت مختبئة تماماً في الغطاء الكثيف، عندما ظهرت الأثني بصرخة حادة واتخذت موقعاً واضحاً فوق الشجرة مكشوفة تماماً، زاعقة تحذيراتهما، وتعليماتها إلى رفيقها، الذي واصل تواريه. تحركت إلى مسافة تصويب سهلة، محاولاً كل ما يمكن للبحث عن الطائر الذكر غير المرئي، ورفعت بندقيتي فجأة، ناحية الأثني، وهي محذرة زوجها إلى آخر لحظة، فسقطت ميتة إلى الأرض.

ارتفع رأسمالي فجأة أمام الجمهور المحلي، فقدموا لي أربعة فراخ عقيق لم ينمو لها ريشها بعد من عش مجاور وحاولت أن أجعلها تظل على قيد الحياة بلا نجاح. ارتفعت سمعتي كرامٍ وهداف ماهر أكثر في الطريق، حينما اقتربنا من السحراء. شاهدت طائر الوقواق على شجرة كبيرة على مسافة، وكنت أراقبه بطريق غير مباشر حين طار، وأسقطته رصاصتي ميتاً. قد تكون رصاصة قياس ٤١٠، مع بندقية أم سبع قاتلة، إذا أصاب المرء الهدف.

عرضوا عليّ نباتاً يسمى مليون في قرية ذنب غاوة، وهو نبات يصنعون منه في مرتفعات هذه البلاد ضمادة لحالات الطهارة. تجولت حول حقول الذرة

الصفراء، حيث كانوا قد بدأوا حصاد القمح، كما قمت بزيارة مسيل غاوة الذي كان به -قليلاً إلى أعلى- شلال مياه جيد. تستخدم هذه المياه للري وقد وجدت في الغطاء النباتي الثري حول جداولها طائر التمهيد الجميل الأسود وبأعداد كبيرة. ولأجل المقابلة، فإن حجلي ويسمى قهبي (جمع قهابي) كان متوافراً هنا في غابات العرعر التي تحيط بالمزارع عند أسفل تل غاوة.

كان طريقنا، عندما واصلنا مسيرتنا من هنا، مبكراً عند الظهر، مماثلاً لذلك الذي سلكناه في الصعود. مكثنا فترة في السحراء، لسقيا الخيل من بئر في المجرى أعلى القرية، وأيضاً لنشاهد جانباً منه، وهو يتكون من قسم رئيس يحتوي على قصر رهيب ومجموعات من عشش عادية. قمت أيضاً بجمع بعض النباتات النامية بغزارة على جانب النهر وتطلعت للطيور، والتي من بينها كانت الطيور النساجة أكثرها وفرة. كان مجرى السحراء الفعلي رافداً لعشران إلى الشمال منه، والذي في اتجاهه ينساب، ماراً بقرية صغيرة تسمى آل زيدي على بعد نصف الميل. لقد سرت مرتجلاً بالفعل، كل المسافة من السودة إلى هذا المكان، غير أنني الآن لحقت برفاقي وامتطيت ظهر حصان للسفر عبر الممر الشرقي إلى قواعدا في أبها حيث وصلنا عند الساعة الثالثة والنصف عصراً. وأمضيت بعد ذلك جزءاً من المساء في شحن ثلاثة صناديق وجوال من العينات للمتحف البريطاني -طيور، وثندييات، وحشرات، ونباتات، وصخور- هي مجمل عيناتي التي جمعتها خلال الشهر الماضي. وقد أرسلتها في الصباح التالي إلى مكة وجدة بسيارة البريد.

كان ذلك يوم الخميس، حيث زرت سوق خميس مشيط، ورأيت حين عودتي إلى أبها، وأنا أتجول قبل الغروب، ضرباً بدائياً من لعبة الكريكت تؤدي

في بطن الوادي. استخدم فيها حجر كبير، أو شريحة صخر مقام عصاة الوكت وحجر مكور مقام الكرة، التي تقذف، بينما كان ضارب الكرة يهتم فقط بالدفاع عن الوكت حاملاً قطعة خشب متينة. لم يكن هنالك ركض أو جري. للأسف لم أسجل الاسم المحلي لهذه اللعبة. كان هنالك شيء آخر من الخصوصية حول أبيها هو صناعة أوعية الطبخ من الفخار، إذ أن لها أشكالاً متباينة، من لبنات وردية ذات لمعان مما أكسب القدور مظهراً معدنياً. وكانت تباع بأعداد كبيرة في الأسواق هنا، وفي المقاطعة المجاورة. قيل إنه في عام ١٩٣٤م، قام موظف حكومي بارز بإجراء عقد زواجين في شهر واحد، أثناء أداء مهمته هنا، كان الأول لسيدة من بني مغيد وانتهى بالطلاق بعد عشرين يوماً بتفضيله لامرأة أخرى من علكم، التي تحصلت على طلاقها بمغادرة ذلك الموظف بعد عشرة أيام لاحقة.

كانت تكلفة الزواج من امرأة سبق لها أن تزوجت مرة واحدة أو أكثر، وتسمى راجع، يتباين بين ١٠ و ٢٠ ريالاً أما في حالة الفتاة العذراء فقد كان بالطبع، أعلى من ذلك، وفي حالة النساء الرقيق -حيث يقوم بعض أبناء حسوة والشعبيين بدور الوسيط الرئيس في هذه التجارة في الفتيات الأفريقيات من ساحل تهامة، اللاتي كن يختطفن غالباً، أثناء رعايتهن لقطعانهن في الغابة- كن الأعلى سعراً على الجميع حسب درجة الجمال وإنجازات أخرى.

كان آخر فقرات برامجي للمرتفعات، هو أن أقوم بزيارة شعار، وقد حدد الأمير اليوم الثالث عشر من يونيو للقيام بذلك، وقد أعارني عبدالله بن رشيد مرة أخرى، وسيارتين لرفاقي وللغفش. تحركنا عند الساعة السابعة صباحاً وعبرنا جسر قابل وسرعان ما مررنا، على يسارنا وعن قرب، بقريتي رصف الصغيرتين

وقصريهما أو قصورهما الثلاثة المدمرة المتباعدة عن بعضها، وبدأ طريق العرب يتعرج فيما يلي هذه القرى، صاعداً جانب التل إلى ممر يسمى أم الركب. كان الطريق طويلاً وصعباً وخشناً إلى حد بعيد، وقد استغرقت رحلة السيارات مدة ١٥ دقيقة لكي تصل إلى القمة، حوالي ٣٠٠ قدم فوق أبها، وعلى بعد ثلاثة أميال ناحية الجنوب. كانت هذه القمة نقطة حدود بين بني مغيد (في الجنوب) وعلكم (في الشمال). وتقع أمامنا مباشرة وتجاه الشمال، تلال سر بن حميد والاسم الأول مشتق من مسيل السر والذي تتبعناه إلى أسفل من الممر، وإلى اليسار إلى أسفل أكثر، حيث اتجه ناحية الشرق ليتصل مع وادي ابن هشبل، وهو أحد روافد بيشة.

دخلنا شعيب بني مغيد، بعد عبورنا المضيق في سلسلة منخفضة مكونة جانبه الأيسر، وعن طريقه وصلنا سريعاً إلى قرية المعمر التي كان رئيسها، الذي توفي حديثاً، مشهوراً بأنه قد بلغ من العمر مئة سنة. تقع قرية عطف بن حميد، عكس اتجاه الوادي، من هذا الموقع -على بعد ستة أميال من أبها- في منحني شعيب غير مرئي من الطريق بسلسلة جبلية منخفضة -يبدو أنها القرية الرئيسة لمجموعة قرى بني مغيد هذه- وعبرنا بعدها جدولاً صغيراً يغذيه نبع اسمه، واسم القرية التي بجانبه، عين المسيفح أو باختصار العين، تبدو القرية مدمرة وسط المساحات المعتبرة لحدائق الفواكه التي تحتوي على أشجار التين، والمشمش، وغيرهما، وكان بينها مستعمرة لطيور السوادية تفرح. اشتملت القرية على مسجد مهجور وبئر عادية مبطنة بالحجارة على جانب الطريق، وقد وجدنا إلى ما يليه، أن الطريق قد سدَّ بجدار حجري مبني من جانب إلى آخر للوادي الضيق لحجز الماء لأغراض الزراعة. كان علينا أن نزيل جزءاً من الحاجز لتتمكن السيارات من العبور.

وصلنا، من وراء هذا الجدار إلى حدود علكم وبني مالك، وهو شعيب غير مهم استدار سريعاً ناحية الشرق من الطريق ليتصل مع شعيب السر على مسافة قليلة في شبكة من تلال منخفضة.

تبتعد الحدود من هذه النقطة عن المجرى وتضرب من خلال ممر بين تلال منخفضة على الجانبين، ثم تتصل بعد حين عند مضيق (علامة حدودية أخرى) ويدخل على جانبه الآخر إلى وادٍ واسع لطيف يجري فيه مجرى سر بني رزام الذي يبدأ من مجموعة التلال على مسافة نصف ميل إلى اليسار من المضيق. مررنا بعد قليل بأول المساكن (آل محمد بن علي) بقرية سوق السبت تركنا السيارات وبعد نصف ميل آخر على جانب الطريق وعبرنا المجرى لزيارة القرية الرئيسة لهذه المجموعة من القرى، والتي امتدت إلى الشمال على امتداد الوادي مع العديد من مزارع الفواكه هنا وهناك، إلى جانب حقول الذرة الصفراء. يشتمل هذا المركز التجاري على قرية سوق وقريتين صغيرتين تسميان القريات وتكون كلها ما يبدو وكأنها قرية واحدة. كانت القرية التالية على بعد الميل الواحد مع اتجاه الوادي، هي آل صعب على الجانب الأيسر، وتقع قرية ضملة في مقابلها عبر المجرى. تجري الحدود بين بني مالك (شرقاً) وربيعة ورفيدة، فيما وراء سلسلة منخفضة معترضة هذا الوادي من ناحية الغرب (أو على امتداد قماتها). يسكن قرى السوق مجموعة بني رزام، قسم من بني مالك.

كان علينا أن نمر، على مسافة أسفل الوادي، عبر أراضي قريتين أخريتين هما بالتتابع الملاحه وآل مجامل. تتكون قرى أخرى تابعة لبني مالك، يبدو أنها قبيلة ضخمة، من آل مصلت، وآل شلفا، وأهل العصبة، وآل هتان، والتمل، وسعبان،

والمجدحة، وقرين، وآل بيشة وهتان، والجنفور، والعطفة، والخريجة، والخنق، والموسيتة، والنبعة، والجعجع، وآل جمعة، وسبل المحلة، وهما قريتان: العين، والعطف، وعدوان، ولحسان (أم الحسن)، وآل بن نعمان، ولجرجار، وحجلة، وآل الغليض، والمجاريدة، وبالكبش، والجنادي.

يقيم شيخ بني رزام ويدعى ابن عفان، في ضملة، غير أن يوم زيارتنا له كان يوم السبت وهو يوم السوق المحلي، لذلك فقد حضر الشيخ إلى السوق وقد قوبلنا من طرفه بحفاوة وترحيب وعلى مستوى مشرف، من جانب المسؤول المقيم في المنطقة واسمه محمد بن لبدان. لقد كان شخصية معروفة ومحترمة ولها معجبون في كل الريف، وقد رفع هذا من مقامه ومقام أسرته، إلى الصدارة في موقع القيادة عند درجة ليست بأقل من تلك للشيخ نفسه. انتعشت أموره حتى غدا رجلاً غنياً بالمستوى المحلي، واعترف الجميع بجاذبيته وبكرمه. ليس له أعداء، وكان يتراأس جلساته في الصالة. لقد قضينا أكثر من ساعة نستمتع بكرمه وسرده للتاريخ المحلي وخرجنا من ذلك بانطباع حسن لشخصيته الجذابة والخارقة للعادة. كانت إجراءات السوق تكراراً ضعيفاً لمشاهد مماثلة في خميس مشيط وفي أبها، والتي كانت تبعد فقط بحوالي ثمانية أميال على الطريق. كان الارتفاع هنا مماثلاً لذلك في أبها، ذلك لأننا كنا نهبط باتزان عبر ممر أم الركب.

عدنا إلى السيارات وواصلنا رحلتنا مارين بآل صعب، ومترمة، وضملة ومن ثم إلى ملحّة، عبر قرية تنتشر فيها بساتين الفاكهة والقصور المنفردة أو بمجموعات من منازل تمتد إلى مسافة الميل الواحد أسفل الوادي. بدأت قرية آل مجامل، مباشرة فيما يلي هذه القرية وهي في داخل المجرى الذي كان عرضه حوالي ٤٠٠

ياردة، ومنتشرة على امتداد ١,٥ ميل أو أكثر، وذات بساتين فواكه مزدهرة وحقول واسعة. عبر الطريق هنا من عند الجانب الأيمن للمجرى إلى الجانب الأيسر، ليمر بالقرية التالية ذات المساكن المبعثرة، والبساتين في متسع واضح للمجرى على يميننا، حيث يميل ناحية الشمال الشرقي بعيداً عن الطريق، ليتصل في نهاية الأمر، مع مجرى بيشة بعد مسافة عبر السفوح الجبلية. كنا هنا على ارتفاع ٢٥٠ قدماً تحت مستوى أبها، غير أن الطريق الآن يتجه ناحية الشمال، وقد بدأ يصعد قليلاً في اتجاه سلسلة منخفضة تحجب ممر شعار. تقع قرية آل مصلت إلى البعيد، على يميننا وعلى الشعيب الذي كنا قد غادرناه قبل قليل، بينما بعد ذلك قليلاً، ضربنا في الحوض الضحل الذي يسمى شعار المزرع الذي ينساب موازياً لسر بني رزام ويمر بقرية مجدحة ليتصل مع مجرى ابن هشبل كما فعل السابق، في طريقه إلى بيشة.

خرجنا منه إلى المنحدر المريح لسلسلة جبال شعار، الذي تقف عند قمته ثلاثة أبراج مراقبة وثلاثة أبراج حراسة، كل منها يقف على قمة صغيرة ولمحنا عند الوصول إلى المضيق المنخفض -العبل- ممر شعار، يمتد أمامنا وعليه ثكنات الأتراك المدمرة وقلعة صغيرة غير أنها جليلة، قائمة في موقع جيد لحماية البناء الكبير من أي هجوم. كنا على ارتفاع ٢٢٠ قدماً تحت مستوى أبها، عند الثكنات التي قضينا فيها وفيما جاورها، حوالي الساعتين، ونبعد الآن عن أبها بمسافة ١٦,٥ ميلاً ونصف الميل.

كان الغرض من المعسكر الحربي في شعار في عهد الأتراك -وهو الآن مهمل تماماً من جانب الإدارة السعودية- هو حماية خط المواصلات الرئيس بين أبها

وميناء القنفذة على البحر الأحمر. أنشئ هذا الطريق مع صعوبته التي لا تزال قائمة في بعض الأجزاء، للحركة ذات الدواليب ومع قليل من أعمال الصيانة، يمكن إعادته كطريق سيارات نظامي. لا بد وأن يكون هذا قد حدث منذ زيارتي، حيث إن الحكومة السعودية تبذل اهتماماً كبيراً بمشكلة المواصلات. سيعود بعدها البناء التركي القديم مفيداً لتخزين البترول واحتياجات أخرى.

كانت القلعة والمعسكرات الصغيرة، والثكنات في حالة سيئة من الدمار في عام ١٩٣٦م. تم نزع كل الأجزاء الخشبية بواسطة رجال القبائل في المنطقة لأجل استخدامه للوقود. وأصبحت الثكنات هياكل بأبواب فاغرة ونوافذ تصرخ الرياح خلالها في دوي مخيف. كانت تغطي مساحات كبيرة من الجرف العالي الذي يسيطر على الهاوية والساحة، وحصل تساقط من طرف الجرف من ارتفاع ١٠٠٠ قدم أو يزيد، إلى سفح وادي تية الذي على امتداده يجري طريق العربات ماراً بالقريتين الصغيرتين العارضة وبعرور، واللتين يمكن رؤيتهما جزئياً عبر الامتداد الأول للمجرى الذي يبلغ طوله ميلين، إلى محایل التي لم نرها، وقد قيل إنها تقع إلى الجنوب، على سفح تل مرتفع يسمى القرين الذي يبدو أنه على بعد ستة أميال من هنا. ينساب تيه إلى ما وراء محایل ليتصل مع وادي حلي الذي يقال إنه يقع فيما وراء سلسلة جبلية عالية ويرى في مشقة، خلف قرين. كان بطن الوادي من رمل عميق، وكان سير السيارات فوقه صعباً جداً، ويتباين عرضه من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ ياردة في الامتداد المرئي، ويجري ناحية الشمال الغربي، وتتجه الجبال نحوه على الجانبين في صخور عمودية على ارتفاع ٢٠٠٠ قدم، مرتبة في سلسلة من الكتوف التي يجد أهل القرى الصغيرة فيما بينها بعض التربة الصالحة للزراعة فيزرعونها.

اصطدم الوتر الضحل للجرف على الجانبين مع الجبال الضخمة . كان من بين تلك الجبال التي على الجانب الأيمن، جبل بعروور ومن خلفه سلسلة جبلية مرتفعة، وكلاهما يتجه ناحية الشمال الغربي بالنسبة للثكنات، وتتبع منطقة بللحمر التي تنفصل بواسطة شريط وادي تيه عن بلاد ربيعة ورفيدة واللتي كانت سماتهما الرئيسة هي الأرض الرأسية لأملحي على بعد ثلاثة أميال إلى الغرب، وتقع قمة مبارك خلفها مباشرة.

يشمخ تل سعد، قريباً منا، وعلى بعد حوالي الميل الواحد ناحية الجنوب الغربي، تفصله قلعة شعار عن الثكنات وتكون سلسلة وقمة خوير من خلفه على مسافة خمسة أميال. يكون هذا -كما كان حال مرتفعات المبارك وبعروور- جزءاً من السلسلة الظهرية الرئيسة الجبلية للسراة، أو الحجاز، كما يسمونها إلى الشمال من وادي ضلع. يقف على مسافة الميل الواحد إلى غرب الجنوب الغربي من موقعنا قمتان عظيمتان من الصخور على جانبي جرف شديد الانحدار وعميق على جانب الجبل ينحدر منه مسيل شعيب رفيدة إلى رأس وادي تيه.

أمكننا رؤية جبل نمري ناحية الجنوب على بعد ٩ أو ١٠ أميال، وهو بقعة أخرى عالية تتبع بلاد ربيعة ورفيدة، بينما يقف التل المنخفض واسمه جبل مجاريض إلى الخلف على الطريق الذي كنا نسلكه، في مكان ما، بالقرب من الحدود بين القبيلة الأخيرة وعلكم (بني رزام). ووقف تل على هيئة القبة قليلاً إلى الخلف، ناحية الجنوب، يسمى العاصم إلى جوار قرية بالاسم نفسه لبني علکم على جانبه القريب. يقال إن شعيب رفيدة يصرف كل السفوح الشرقية لبلاد ربيعة ورفيدة إلى وادي تيه.

هكذا كان المنظر العام، ناظرين إليه من ناحية الثكنات تجاه البحر، حيث كان الجندي التركي قد حضر إلى هنا، في تلك الأيام المنصرمة، لخدمة هذه البلاد في أرض المنفى المظلمة هذه، لا يزال طريقه الذي سلكه للصعود من رأس وادي تيه عبر المنحدر، المغطى بالحصى، واضحاً للعيان وهو يتعرج، على الأقل، في تلك المواقع التي لم تنجرف إلى الهاوية. يصل هذا الممر، على بعد ٢٠٠ ياردة من الثكنات، إلى قمة الجرف في انحدار سهل، والذي عند نهايته يجد المجند الجديد، ما هو ملائم بما فيه الكفاية، المقبرة الكبيرة، التي دفن فيها العديد من مَنْ قد سبقوه.

تمتد المقبرة من طرف الهوة بعيداً عن الثكنات شاغلة جزءاً من مساحة السهل الصخرية الكثيبة، والتي لا بد وأن قد خدمت كأرض استعراض في تلك الأيام الجميلة المنصرمة، تجاه اليابسة وعند الثكنات. تم إغلاق هذا الممر من الجانب البعيد لسلسلة اعل بالقلعة الصغيرة والتي تقع ناحية الجنوب الشرقي، ويسدّها كذلك، على الجانب الشمالي الشرقي، على بعد الميل الواحد، تل غفلة الصغير. يجري بين الاثنين، منخفض ضحل، يبدأ من المنحدر الشرقي للجرف، ويتصل في نهاية الأمر مع مجرى شعار المزروع. أقام عليه الأتراك، قليلاً إلى الخلف من جانبه الأيمن، وعلى بعد ٥٠ ياردة شرق الثكنات، حوضاً ذا حجم وسط، ليعمل خزاناً لمياه الأمطار والسيول لاستخدامها بواسطة الحامية. وقفت إلى جواره شجرة طلع حزينه، منفردة، إلى جانب أشجار طلع أخرى وجنبات ممتدة تجاه وإلى داخل المنخفض. كانت البركة خلال زيارتي، مملوءة بالماء غير أنها لا تعطي الانطباع بالاستدامة كخزان. كانت المياه في تلك الأيام بلا شك، تضخ من آبار قرى بني رزام خلال أشهر الصيف.

انتهت زيارتنا إلى شعار، وهو مكان حزين، ميت، ليس به إلا طيور الغراب وقبرة الصحراء لإحياء منظر للخراب، كان ذات يوم مقراً للراغبين في حماية السلام في هذه الأرض القاسية. أدركنا ظهورنا نحوها في فترة ما بعد العصر الباكرة لتحسس خطواتنا إلى أبها. توقفنا عند ضمله مدة نصف ساعة لزيارة الشيخ بن عفان كما قد وعدناه بذلك، وتلكأنا عند السوق في سرور برفقة محمد بن لبدان. تناولنا القهوة والشاي في كلا الموقعين بينما كنا نتحدث حول شؤون العالم، ووصلنا أبها بعد ذلك قبل الغروب بنصف ساعة. غادرت أبها في اليوم التالي إلى الأبد، ولكنني تركتها بذكريات حلوة لكرمها الجذاب وبيئتها الجميلة. لقد وفرت لي أول مذاق حقيقي «للجزيرة العربية السعيدة» عند القدماء وقد جاوزت في ذلك كل توقعاتي. لقد أمدت الطبيعة هؤلاء الناس البسطاء، بمحيط عظيم وكانوا في قناعة للحياة مع الطبيعة، يتقاتلون ويتشاجرون فيما بينهم، كما فعل أسلافهم من قبل، حتى جاء فجر السلام السعودي.